حواضر العالم الإسلامي

دكتور
عبد الرحمن زكي

القاهرة

منارة الحضارة الإسلامية

حواضر العالم الإسلامي

في ألفٍ وأربعمائة عام

القاهرة

منارة الحضارة الاسلامية

تأليف

دكتور عبد الرحمن زكي

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الانجلو المصرية

إهداء

إلى

مؤرخى القاهرة ومحبيها
وجميع العاملين لرفعتها
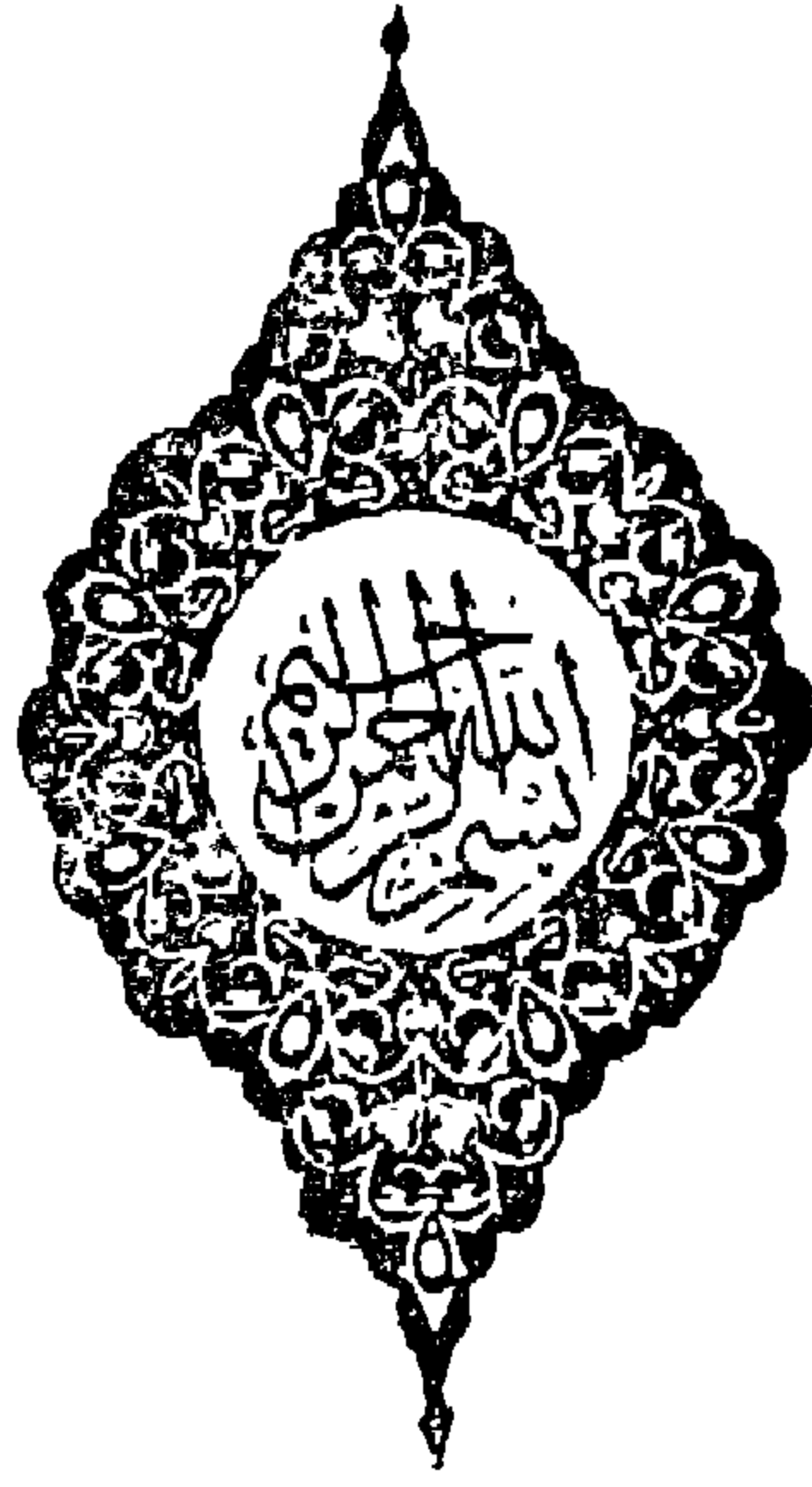
تمهيد

بعد ما أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط عام ٢١ هـ لتكون حاضرة مصر الإسلامية ، سرعان ما صارت مركزا يزدهر بالتجارة الرابحة ، ويستحوذ على عنايه الرحالة فى الشرق والغرب . وبعد انهيار حكم الأمويين القصير الأجل فى دمشق ، أقام العباسيون مدينة العسكر قاعدة لهم فى مصر ، ثم جاء أحمد بن طولون ، نائبا عن الوالى العباسى فأسس عاصمة جديدة لحكمه ، وأطلق عليها اسم القطائع ، وظلت عاصمة مصر حتى أسس القائد جوهر مدينة القاهرة عام ٩٦٩ م لتكون معقلا للفاطميين ، ثم كانت إقامة الأزهر الذى ألقيت فيه الخطبة الأولى فى السابع من رمضان عام ٣٠١ هـ أو الثلاثين من أكتوبر عام ٩٧١ ، واعتبر تأسيس الأزهر حادثا جليلا فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ومنذ ذلك الحين عاشت القاهرة أحداث ألف عام ونيف ، مرت بها دول وحضارات جعلت منها عاصمة العالم الإسلامى ومركزا للإشعاع الفكرى .. كما أن موقع القاهرة الوسيط جعلها بؤرة تلتقي فيها خيوط السياسة والاقتصاد الإسلامي .

وقد أدت رعاية القاهرة للأماكن المقدسة ، كمكة والمدينة ، ونشاط علماء الأزهر وشتى المعاهد الدينية بها ، أن صارت تتمتع باهمية روحية وعلمية فى العالم الإسلامى ، كما أن معظم طرق التجارة بين أوروبا وآسيا وشرق أفريقيا وقلبها كانت تمر بالقاهرة جعلت منها سوقا كبرى لنفيس السلع والمواد ، كالتوابل والمنسوجات والرقيق والأحجار الكريمة !

ولما استهان حكام مصر المماليك بقوة العثمانيين ، انتهت فترة ازدهار القاهرة عام ١٥١٧ ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز العالم الإسلامى المشرق من القاهرة إلى استانبول . .

ومع ذلك استطاعت مصر أن تستيقظ من نوم عميق ، وشهدت القاهرة نجاح عشرات من المشروعات العلمية والثقافية الباهرة ... ولا غرو فإن القاهرة كما وصفها المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون — هى بلا شك جنة الدنيا وواسطة عقد المدائن الإسلامية . . .

القاهرة فى أول المحرم ١٤٠٠ الموافق ديسمبر ١٩٧٩

المــؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الفسطاط

قاعدة مصر الإسلامية الأولى

لما فتح العرب مصر فى سنة ١٩ هـ (٦٣٩ م) كانت عاصمة البلاد — الإسكندرية. ففكر القائد عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة للادارة والجيش. إلا أن ذلك الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك، بل أمره بإنشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء أو صيف. ولما عاد عمرو من فتح الإسكندرية قصد ذلك المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون الرومانى حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى، وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة للبلاد ودار الامارة واختط عمرو الجامع العتيق، الذى عرف فيما بعد باسمه، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل منها، وهم معاوية بن خديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن مخزم الخولانى، وجبريل بن ناشرة المعافرى. ويصف المؤرخ ابن الحكم فى كتابه «فتوح مصر» خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيرا من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء. وقد استند المستشرقون إلى ما كتبه، فرسموا تخطيطات فى غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط. وقد حدد المؤرخ المقريزى موقع الفسطاط فى خططه فقال:

« إعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم . وليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به حامية الرومان .

وتاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه ، ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة بدأ بعد صلح الإسكندرية ، وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وحاضرة ذات شأن كبير ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من إنشائها . وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بن العاص بنى الفسطاط عام ٢١ هـ بعد فتح الإسكندرية ، ومما زاد فى مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمنمس تراجانوس (ترعة طرايانوس) ، وكانت تمر بمدينة بابيس وبحيرة التمساح ، لكنها أهملت فى وقت ما فاعاد حفرها عمرو ابن العاص ، وعادت إليها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى الجزيرة العربية .

ولما انتهى عمرو من بناء الحاضرة الجديدة ، أنشأ الجامع العتيق أقدم المساجد فى مصر وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها(١) وقد اختار عمرو موضع بنائه فى المكان الذى كان فيه لواءه ، وقد عرف باسم مسجد أهل الراية ، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون قوات الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها .

وفى الجهة الشمالية من الجامع بنى عمرو دارا له وأخرى غربها لابنه عبد الله عرفت بالدار الصغرى تمييزا لها عن دار أبيه التى عرفت « بالدار الكبرى » .

---

(١) مجلة الهندسة ـ العددان ١١و١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٣ .

كذلك بنى الزبير بن العوام دارا بجوار دار عبد الله(١) . ولما رسخت أقدام المسلمين فى مصر اتسعت وزادت عمارة الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه(٢) وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال كما ذكر ابن حوقل(٣) .

وفى الفسطاط شيد الوالى عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك دارا للامارة عرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم . وكانت تعلو هذه الدار قبة مذهبة شأن الأمويين فى تفخيم بناياتهم حتى تبز المبانى البيزنطية التى خلفها الروم وراءهم فى الأقطار التى انتزعها العرب منهم .

ولعل دار الإمارة هذه كانت أول بناية إسلامية كبيرة بمصر وصل الينا نبأ زخرفتها . وقد مرت على الفسطاط بعد ذلك مراحل كثيرة ، فكانت كما ذكر الجغرافى ابن حوقل « فى زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة » .

وكان سكان الفسطاط يستمدون مياه الشرب بوساطة السقائين الذين كانوا يجلبونها من النهر بالقراب ، وكانت تحفظ فى أزيار من الفخار أو فى صهاريج صغيرة معدة فى الصخر تحت المنازل ثم تسحب منها بالدلاء كلما دعت الحاجة .

---

(١) مجلة الهندسة ـ العددان ١١و١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ء الجزء الثانى ص ١٧٤ .

(٣) ابن حوقل رحالة بغدادى زار الفسطاط فى النصف الاخير من القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى) .

وقد حفرت آبار كثيرة فى الفسطاط وكانت تمد بمائها الأحواض العليا فى الدور. وقد نقرت هذه الآبار فى الصخر وتجاوزته إلى الطبقة الرملية حيث توجد المياه الغائرة ولكن هذه المياه كان يكثر فيها الملح كلما بعدت الآبار عن النيل ولذلك كانت مياهها غير صالحة للشرب، وكانت تستعمل فقط فى غسيل الملابس والأوانى والنافورات، وكانت هذه المياه ترفع إلى الأحواض العالية بالدور إما بواسطة السواقى أو بالآلات الرافعة اليدوية ثم تتجه من الأحواض إلى أنحاء الدور المختلفة فى أنابيب من الفخار عثر على كثير من بقاياها فى أعقاب تنقيبات الفسطاط.

وكان فى بناء بعض الدور نافورة أو حوض مربع مبنى بالطوب الأحمر وقد تحيط به الخضرة، كما أنه كان فى بعض المنازل أحواض لغسيل الأيدى.

خليج امير المؤمنين

ومما ساعد على ازدهار الفسطاط وانتعاش حركتها التجارية، إعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر، وكانت تعرف باسم خليج تراجان على زمن الرومان. وكانت تخرج من النيل شمال بابليون وفى أثناء الفتح العربى كان مبدؤها بشارع الخليج المصرى فى حذاء مدخل شارع بنى أزرق بأرض جنينة لاظ الواقعة فى الجهة الشمالية الغربية من جامع السيدة زينب

ولما كان هذا الخليج قد طمس فى كثير أجزائه عند فتح العرب لمصر، فقد استأذن عمرو الخليفة عمر فى إعادة شقه، فسمح له وسمى بخليج أمير المؤمنين وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز محملة بالغلال والعروض وأنواع الطعام، وظل يؤدى أعمالا جليلة حتى أهمل فى زمن عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٣ م وفى أيام من جاءوا بعده من الولاة، وبعد إنشاء القاهرة عرف باسم خليج

القاهرة فالخليج الحاكمي ثم سمي خليج اللؤلؤة نسبة إلى قصر اللؤلؤة الذي كان قائماً في العصر الفاطمي في موقع مدرسة الفرير بالخرنفش . وسمي أيضا خليج مصر أو الخليج المصرى ، وفى سنة ١٨٩٧/١٨٩٩ ردم الجزء الواقع من الخليج داخل مدينة القاهرة وحل محله شارع الخليج المصرى .

ميناء الفسطاط

أصبحت ميناء الفسطاط أعظم موانيء مصر منها تصدر وترد المتاجر من أقاصى البلاد إلى شمالها ، وقد دهش الرحالة ابن سعيد المغربى من نشاط الميناء فقال « أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى (الأبيض) والبحر الحجازى (الأحمر) فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك بالقاهرة » .

وليس بخاف أيضاً أن أول دار للصناعة أنشئت بمصر الإسلامية كانت تلك التى أنشئت بالفسطاط وكان مقرها جزيرة الروضة على ساحلها الجنوبى الشرقى ، أنشئت عام ٦٧٣ لبناء السفن حتى أيام ابن طولون ثم أحرقتها عام ٩٣٤ سفن أسطول محمد بن طغج الاخشيدى ، ثم نقلها من الجزيرة إلى الفسطاط مكان بستان الطواشى ويقال إن جزءا منها هو الذى نقل إلى الفسطاط ، يؤيد ذلك ماذكره بعض المؤرخين بقولهم إنه كان هناك داران للصناعة فى عهد الفاطميين ، إحداها بالروضة ، والأخرى بالفسطاط ، ولما طرح البحر فى المسافة بين الفسطاط وديرالنحاس ، وتكونت أرض جديدة نقلت دار الصناعة إلى ساحل مصر تجاه دار النحاس (دير النحاس) حيث استقرت فترة طويلة ، ثم نقلت إلى ساحل بولاق فى أيام محمد على فى القرن التاسع عشر .

• القرافة

وكانت القرافة من معالم الفسطاط التى أفاض المقريزى وغيره من المؤرخين

الـكلام عنها. فقد رؤى أن تـكون للحاضرة الإسلامية مقبرة ؛ ولذلك جعلت بأرض المقوقس عند سفح المقطم شرقى الفسطاط ، ودفن فيها عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة ، وخصص فى جنوب المقبرة مكان لدفن موتى الأقباط ، وظلت مستعملة حتى أيام الفاطميين ثم أخذ خلفاؤهم يدفنون موتاهم فى تربة الزعفران فى القصر الـكبير (خان الخليلى) ، أما الأهالى فقد ظلوا يدفنون موتاهم فى مقبرة الفسطاط .

وبعد اضمحلال الفسطاط طغت المقابر على مساكن خطة المعافر التى خلت تدريجيا من ساكنيها وعلى مساكن خطة بنى قرافة ، ومن هنا أطلق اسم القرافة على المدافن بتلك الجهة أولا ثم عم سائر المدافن وعرفت باسم القرافة الـكبرى .

وفى أيام الأيوبيين أنشئت حول قبة الإمام الشافعى جملة قبور أطلق عليها القرافة الصغرى وتضاءل الدفن بالقرافة الـكبرى إلى أن عاد إليها فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ الناس يدفنون موتاهم بعد عام ١٣٠٠ تحت سفح المقطم فيما يلى قلعة الجبل . ثم انتشرت القرافات فى شرقى القاهرة وفى شمالها . بين باب الوزير وباب النصر إلى باب شرقى باب الحسينية ومنها إلى العباسية الشرقية وكان للقرافة الـكبرى خندق حفر حولها وحول الفسطاط وكان ذلك فى عام ٦٥ هـ/٦٨٤م حينما خشى الوالى هجوم مروان بن محمد على مصر من تلك الجهة. وفى ٨١٥ م طمس هذا الخندق ، ثم أعيد حفره أثناء فترة الشقاق بين الأمين والمأمون.

• خاتمة الفسطاط :

حدث للفسطاط فى أثناء عمرانها حادثان عظيمان هما قيام ضاحيه العسكر ثم مدينة القطائع وجاء الدور النهائى للفسطاط جاء عقب ذلك فى حادثين ، كان

الأول فى أيام الشدة العظمى فى أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمى . وكان الحادث الثانى حريق مصر فى وزارة شاور أثناء خلافة العاضد بالله ، أما المناسبة الأولى فكانت عندما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت البلاد المسغبة والمجاعة ، ولجأ المنتصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى ، فكتب اليه سرا يستقدمه إلى مصر لتدبير الأحوال ، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعمل على تخريب الفسطاط فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن يعمروا ما شاءوا فى القاهرة وغيرها ، فعمرت وسكنها الناس ولم يبنوا شيئاً فى الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشا مقفرا .

أما المناسبة الثانية فهى حريق الفسطاط الهائل الذى أمر باضرامه شاور سنة (٥٦٥ هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عمورى (أملريك) الديار المصرية ، عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها فى أيدى الصليبيين .

أمر شاور باخلاء الفسطاط وحرقها ويقول المقريزى : « بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولا . واستمرت النار تأتى على مساكن مصر فى اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما . ومن ثم تحولت الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن « بكيمان مصر » . فلما حدث الحريق رحل « عمورى » من بركة الحبش(١) ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالا عنيفاً .

---

(١) كانت هذه البركة واقعة جنوب مدينة مصر بين النيل والمقطم وكانت تطلق على حوض من الاراضى الزراعية التى يغمرها ماءالنيل وقت فيضانه سنويا وكانت تشغل الاراضى مساحة قدرها ١٥٠٠ فدان (تعليق محمد رمزى — النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٨١و٣٨٢) .

ولما تولى حكم مصر يوسف صلاح الدين الأيوبى ، أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد فانتقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع ، وقد قال الرحالة ابن سعيد المغربى : وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينـــة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة .

وقد كتب لنا المؤرخون المصريون ابن دقماق والمقريزى والقلقشندى بالإضافة إلى ما كتبه ابن سعيد عن مدينة الفسطاط معلومات اضافية تقول أن تدهور المدينة كان يزداد قرنا بعد قرن. وفى العبارة الآتية لخص القلقشندى المحن التى نزلت بالفسطاط فقال :

« لم يزل الفسطاط زاهى البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حالة وتناقص . وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه . وتتابع الخراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » .

وعلى هذه الحالة تحولت الميناء النهرية والعاصمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل على بك بهجت فكشف فيما بين عامى ١٩١٢ و ١٩١٣ أجـــزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التى لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع.

ومن يزور الفسطاط الآن ، يرى أنها تنقسم قسمين ، قسم شرقى مجاور للجبل ، وقسم غربى واقع على النيل . فأما القسم الشرقى وهو الفسطاط الأصلية التى وقع فيها الحريق فى عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨ فكله خراب وأرض مشغولة بالتلال

والكيمان ، ويتخلل بعض أجزائها الحفائر التي عملت للكشف عن أساس بعض دورها القديمة ، وليس في هذا القسم من المباني سوى قصر الشمع وجامع عمرو ومن الأمكنة المسكونة خط كوم ابن غراب (كوم غراب الآن) . وأما القسم الغربي من الفسطاط فهو الذي يعرف اليوم بمصر القديمة ، ويسميها العامة « مصر عتيقة » ويحده من الشرق القسم الشرقي السابق التحدث عنه ، ومن الشمال المكان المقام عليه الآن قناطر مجرى الماء المعروفة بحائط العيون والتي تنتهي من الغرب بسواقي مجرى الماء التي كانت تنقل مياه النيل إلى القلعة وبساتينها ، ومن الغرب مجرى سيالة جزيرة الروضة التي تمتد بين شرق النيل وجاردن سيتي .

وفي حي مصر القديمة ٤١٧ شارعا وزقاقا وحارة ، وأهم معالمه جزيرة الروضة وكان بها قلعة كبيرة شيدها الصالح نجم الدين الأيوبي ، كما كان بها عدة أبراج وقصور ، وفي الحي أيضاً مقياس النيل • وقد جدد بناؤه مرات كثيرة وهو اليوم من أهم الآثار العربية . ويقدر سكان هذا الحي بقرابة ثلث مليون نسمة نصفهم تقريباً من الإناث .

الفسطاط كما شاهدها
الرحالة العرب

وحينما يصف ابن حوقل الجغرافي العربي (ت ٩٧٧ م .) في كتابه « صورة الأرض » ـ الفسطاط فإنه يأخذ في اعتباره الناحية الجغرافية ، فيذكر . . والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين ، فيمدو من الفسطاط إلى عدوة وائل ، فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة (الروضة) ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم

الثانى كالجسر الأول إلى أبنية جديدة ومساكن على الشط الثانى تعرف بالجيزه .
والفسطاط مدينة كبيره نحو ثلث بغداد ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ،
ذات رحاب فى محالها ، وأسواق ومتاجر فخام ومملك جسام ، إلى ظاهر أنيق
وهواء رقيق وبساتين نضرة ومنترهات على مر الأيام خضرة .

وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها محالهم كالكوفة والبصرة ،
والدار تسكون بها طبقات سبع وست وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان
من الناس ... ومعظم بنيانهم من الآجر .

وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر مدينة سمتها القاهرة ، استحدثها القائد
جوهر قائد جيش المغرب عند دخوله إلى مصر بجيشه وحاشية وقد ضمت من
المحال والأسواق وحوت من أسباب الارتفاق بالحمامات والفنادق إلى قصور مشيدة
وقد أحدق بها سور منيع رفيع يزيد على ثلاثة أضعاف ما بنى بها . وبها ديوان
مصر ومسجد جامع حسن نظيف غزير القوام والمؤذنين .

فاذا كنا فى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م) وفد المقدسى الجغرافى على الفسطاط
صنف كتابه « أحسن التقاسيم »(١) وفيه يقول :

« الفسطاط هو مصر فى كل قول . اشتهر اسمه وجل قدره فهو مصر مصر ،
وناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الآنام وأجل من مدينة السلام ،
خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم ، ليس فى الأمصار آهل منه ،
كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص حسن الأسواق والمعايش ،
إلى حماماته المنتهى ، ولقياسره لياقة وبهاء ، ليس فى الإسلام أكبر مجالس من
جامعه ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر من مراكب ساحله ، آهل عن نيسابور
وأجل من البصرة وأكبر من دمشق ، به أطعمة لطيفة وأدامات نظيفة وحلاوات
رخيصة كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهواء
معدن العلماء . طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية ، ومعروف كثير وصدقة ، نغمتهم
بالقرآن حسنة ، ورغبتهم فى الخير بينة وحسن عبادتهم ، فى الآفاق معروفة قد

(١) أحسن التقاسيم : ص ١٩٧ ـ ١٩٨ طبعة بريل بهولندا عام ١٩٠٩ .

استراحوا من أذى الأمطار وآمنوا من غاغة الأشرار ، ينتقدون الخطيب والإمام ولا يقدمون إلا طيبًا ، وإن بذلوا الأموال ، قاضيهم أبدا خطير ، والمحتسب كالأمير ، ولا ينفكو ، أبداً من نظر السلطان والوزير ، ولولا عيوب له كثير ، ما كان له فى العالم من نظير .. ودورهم أربع طبقات وخمس كالمنابر يدخل إليهم الضيا من الوسط وسمعت أنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتى نفس . وسمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل ، فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريبا مما قالوا وأبطيت يوماً عن السعى إلى الجمعة فألفيت الصوف فى الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع (عمرو بن العاص) ورأيت القياسير والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين ، وهذا الجامع يسمى السفلانى ، من عمل عمرو بن العاص وفيه منبره حسن البناء ، فى حيطانه شيء من الفسيفى على أعمدة رخام أكبر من جامع دمشق والازدحام فيه أكثر من الجوامع الست ، وقد التفت عليه الأسواق إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضأة وهو أعمر موضع بمصر . وزقاق القناديل عن يساره . والجامع الفوقانى من بناء ابن طولون أكبر وأبهى من السفلانى ، على أساطين واسعة مصهرجة وسقوفه عاليه فى وسطه قبة على عمل قبة زمزم فيها سقاية ، مشرف على فم الخليج وغيره ، وله زيادات وخلفه دار حسنة ومنارته من حجر ، درجها من خارج .

الفسطاط والنهضة العلمية

تبوأت الفسطاط مكان الصدارة بين المدائن الإسلامية منذ استقر فيها العرب فى أعقاب فتح مصر (٢٠هـ - ٦٤١م) . ولا يخفى أن مصر كانت تسودها قبل هذا التاريخ الثقافة اليونانية والرومانية ومركزها الاسكندرية حيث نهضت جامعتها الكبرى بفضل علمائها بنشر شتى العلوم والفلسفات ، بيد أنها أخذت تدريجيا بعد

الفتح العربى تفقد مكانتها السياسية والثقافية وتجتذبه إليها الفسطاط الجديدة . وكان من أثر اعتناق أهالى مصر ـ الدين الإسلامى ان انتشرت اللغـــة العربية وأقبل المصريون على تعلمها ، وضعفت اللغتان القبطية واليونانية . وكان بين المحاربين ـ بعض الصحابة العلماء فكانوا هم الذين قادوا حركة تعليم القرآن الكريم واللغة العربية ، وعلوم الدين الحنيف .

كان مركز النهضة التعليمية الجديدة ـ جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وكانت أهم ما يدرس فيه علوم الدين من تفسيرالقرآن الكريم ، وتفسير الأحاديث النبوية وأسس الفقه والشريعة . وكان من أشهر الصحابة الذين قدموا إلى مصر ونهضوا بالتعليم فيها ، هم عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وهو يعتبر بحق مؤسس المدرسة المصرية . وكان أول من أقرأ القرآن بمصر ـ أبو أمية بن مخمر المغافرى الصحابى . ومن بعدها انتقل التعليم إلى تلاميذهم المصريين . ومن رجال الطليعة عثمان بن القفطى المصرى المعروف بورش (ت ١٩٧هـ ـ ٨١٣م) ثم الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ ـ ٧٩١م) وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ ـ ٨١٣م) . وظل التعليم فى مصر تعليما دينيا خالصا مركزه الفسطاط والاسكندرية فى أول الأمر حيث نزلت الصحابة والتابعون . ولم ينتشر التعليم الإسلامى فى قرى مصر إلا بعد مجىء الخليفة المأمون بعد ثورة القبط سنة ٢١٦هـ (٨٣١م).

ثم وفد الإمام الشافعى على مصر وأخذ عنه المصريون مذهبه الجديد فى المناظرات الفقهية وقويت مدرسته بها ، وقد أقام بالفسطاط خمس سنين وتسعة أشهر يعلمّ الناس ويؤلف كتبه وينشر مذهبه بين الناس ، وفى خاتمة هذه المدة اشتد عليه المرض فتوفى فى ليلة الجمعـة الأخيرة من رجب سنة ٢٠٤هـ ـ ٨١٩ م .

وعلى مر الأيام عنى الطلبة المصريون بالفلسفة والطب ، فقد بقى أثر مدرسة

الاسكندرية وثقافتها طوال العهد الأموي واستمر إلى العصر العباسي . ومن العلماء المصريين الذين تثقفوا بالعلوم العقلية ذو النون المصري (الأخميمي) ، لقد اشتغل بصناعة الكيمياء وغيرها من علوم الفلسفة وكانت وفاته سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) .

وبفضل الدولة الإخشيدية (٣٢٣هـ - ٣٥٨هـ) أصبحت مصر ذات مركز رفيع وممتاز للعلم والتعليم . فقد كانت حلقات العلم بجامع الفسطاط وبجامع ابن طولون حيث يلقى الفقهاء والأدباء دروسهم ومصنفاتهم على تلاميذهم ونبغ من المصريين كثير من زعماء الفكر والأدب منهم أبو عمر الكندي (٣٥٠هـ - ٩٦١ م) وأبو جعفر النحاس المصري (٣٣٨هـ - ٩٤١م) وغيرهما ، في حين بقى جامع عمرو معهد مصر الأسمى في ذلك العهد يترأس جميع المساجد الأخرى إلى تعاقب بناؤها في أنحاء مصر .

ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٩٦٩م) واصل جامع عمرو رسالته ، توجه من حلقاته حركة التعليم والتفكير في مصر الإسلامية . وقد أقيمت صلاة الجمعة في تاج الجوامع - هذا ، وخطب فيه الخليفة لدين المعز الله في التاسع عشر من شعبان سنه ٣٥٨هـ (٩٦٨م) بعد استيلاء القائد جوهر على الفسطاط بأيام قلائل . وفي رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م) أمر جوهر القائد بأن تنقش جدران هذا المسجد باللون الأخضر شعار العلويين : وكان نصيب جامع عمرو كمسجد للعبادة ومعهد للدراسة من عناية للفاطميين عظيما جداً ، حتى بعد قيام الأزهر والمعاهد المستجدة . والجدير بالذكر أن حلقات العلم بجامع عمرو لم تخل من دراسة علوم الشيعة ، فقد جالس به كثير من الفقهاء ودرسوا فيه الرسالة الوزيرية التى ألفها الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي[١] .

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ج ٢ ص١٧٢ ، الخطط المقريزية ج ٣ ص٩ ، ج ٤ ص ١٥٧ - يراجع أيضاً ص ١٠٥ - التعليم في مصر في العصر الفاطمي الاول للاستاذ خطاب عطية علي .

ومجمل القول فانه تقابلنا فى العصر الطولونى بشائر حركة علمية طبية ، فنلتقى بأحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية المؤرخ الذى ألف كتبا فى سيرة ابن طولون وسيرة أبى الجيش ، وله كتاب المكافأة الذى يتمثل فيه طابع عصر الترجمة والنقل من المعارف القديمة ، وكتاب « أخبار الأطباء » . ويبدو أن صناعة الطب فى بداية العصر الإسلامى المصرى قد أفادت من تقاليد مدرسة الإسكندرية القديمة . وقد توفى ابن الداية حوالى سنة ٩٠٥ م . ونلتقى أيضا بالطبيب والمؤرخ سعيد بن البطريق (٩٣٩م) شقيق عيسى . وكان سعيد من أهالى الفسطاط ، وأشهر أطبائها نظريا وعمليا ، والجدير بالذكر انه نصب بطريركا على الإسكندرية .

العسكر

العاصمة الإسلامية الثانية

حينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية (١٣٣هـ ٧٥٠م) فر مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه ضد منازعه ابن العباس الهاشمى أول الخلفاء العباسيين، فلما وصل إلى مصر أشعل رجاله النار فى الفسطاط وفى القنطرة التى كانت تصلها بجزيرة الروضة . واتجه إلى شاطىء النيل الغربى ، لكن ذهبت تدابيره عبثا لان القائد العباسى ورجال خراسان أدركوا ما عزم عليه ولحقوا به بسرعة فى قرية بوصير وقتلوه. ثم حملوا رأسه وطافوا المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموى إلى البيت العباسى (١).

وكأن رجال العباسيين لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط ، إما لرغبة فى التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادات فى الشرق منذ قديم الزمان ، وأما لأن مروان بن محمد كان قبل مقتله قد أضرم النار فى الفسطاط — دمرت

---

(١) فى الاصل المعسكر كما جاء فى فتوح مصر لابن عبد الحكم . وكان يمتد العسكر على شاطىء النيل وهو وقتئذ اقرب الى الشرق من موضعه الحالى لانه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر . وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث يمتد الان مجرى نقل المياه وشمالا شارع مراسينا الى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى وغربا بين شارع السد والديوره وشرقا خط تصورى يمتد من قرب مسجد الجاولى بشارع مراسينا الى السيده نفيسة المعروف قديما بباب المقدم . وفى أيام المقريزى لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف . (محمد رمزى).

جزءا كبيرا منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة فى مصر فى مكان عرف فى صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وكان يمتد إلى جبل يشكر الذى بنى ابن طولون على قمته فيما بعد مسجده الجامع . وفى ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وبنى صالح بن على دار الادارة وسكن الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت عليها المساجد والدور والبساتين والأسواق . وفى القطائع بنى الأمير أحمد بن طولون فيما بين بيمارستانه بالقرب من بركة قارون التى ردمت وشيد عليها كافور الاخشيدى دارا صرف عليها مائة ألف دينار .

ازدهرت العسكر لكثرة ماشيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون واليا الذين حكموا مصر : نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة وصار حيا زاهرا لم يقلل من شأن الفسطاط كمركز هام للتجارة أو كقاعدة ثانية لمصر ، ولما توالت الأعوام عظمت العمارة فى العسكر إلى أن قدم الوالى أحمد بن طولون وشيد قصره بالقطائع وترك العسكر ، وليس هناك اليوم أثر لهذه الضاحية ، كما أن المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ واف لسكانها ، فقد ساد عصرهم نوع من سوء الادارة وفساد الحكم ، ولقوا صعابا كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بنى أمية فى مصر ، وكان لزاما عليهم أن يخمدوا الفتن التى أثارها الخارجون عن الإسلام أصحاب بعض المذاهب ، أو يقاوموا الثورات التى شبت بين القبائل العربية أو الأقباط . وقد ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الامارة فى العسكر حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة وتخربت العسكر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى على أثر أيام الشدة العظمى .

القطائع

العاصمة الإسلامية الثالثة

فإذا انتقلنا إلى العصر الذى زاد فيه نفوذ الجند الأتراك فى خدمة الخليفة العباسى رأينا مقاليد الأمور أصبحت فى أيديهم ، فاستولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال ، وقدم إلى وادى النيل أول والى تركى الأصل سنة ٨٤٦ ميلادية . ثم بدأ الخلفاء فى إقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القواد من الترك ، وكان هؤلاء القواد لايميلون إلى الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس، فكانوا يرسلون إلى مصر عمالا من قبلهم . وكانت مصر من نصيب أحد كبار الأتراك واسمه (باكباك)ولاه عليها الخليفة المعتز ابن المتوكل، ونظرا لما كان للشاب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة انتخبه باكباك قائدا للحامية العسكرية فى الفسطاط ، وكان طموحا إلى المجد ، فلم يمض على ولايته فى مصر عامان حتى استقل بملكها .

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لا تتسع لحاشيته وتضيق بطامعه، فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط . فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة فضاء الا من بعض مدافن المسيحيين واليهود مساحتها نحو ميل مربع، فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته واختط فى موضعها مدينته الجديدة القطائع ،ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة فى شعبان عام سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م .

ويمكن القول بأن حدود العاصمة الجديدة امتدت بين حد الفسطاط الشمالى

حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم فى مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء وفيما بين الرميلة تحت القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين ، واختط الأمير ابن طولون قصره ، وأمر أصحابه ورجاله واتباعه بأن يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط . واقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها، ثم عمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران . . .

جامع ابن طولون جوهرة معمارية

ولما كثر أتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر، ألتمسوا منه أن يشيد لهم جامعا آخر أوسع من الجامع الأول ، فأجابهم إلى التماسهم ، واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م) وأنتهى تشييده بعد عامين . وقد بالغ فى زخرفته الداخلية وعلق فى سقفه القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على إفريزه آيات من القرآن لا يزال بعضها ظاهرا إلى اليوم . وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذى خلد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم ، وهو فى طليعة أجل الآثار فى مصر ويعتبر علما ظاهرا فى تاريخ العمارة الإسلامية .

وتولى الحكم « خمارويه » بعد وفاة أبيه فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع ، وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيها كثيراً وأخذ الميدان المجاور للميدان الكبير وحوله إلى بستان فتان وزرع فيه أصناف الرياحين والشجر وكسا جذوع النخل بالنحاس المذهب والمفضض ، وأنشأ فى وسط قصره بركة ملأها بالزئبق ، وجعل فى أركان البركة سلكا من فضة وجعل فى السلك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشا من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها . وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش . ولما توفى خمارويه هوى نجم الأسرة

الطولونية وأخذت فى الانحلال ، وانبل محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على البلاد فبلغ الحدود المصرية وهزم الأسطول المصرى ثم أنقض على القطائع (٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة . ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقرا للحكومة ، ولما أصيبت مصر بالمجاعة فى أيام المستنصر (٤٥٧ هـ/٤٦٤ هـ/١٠٦٥ــ ١٠٧٢ م) قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة وأصبحت القطائع والعسكر أثرا بعد عين ولم يبق منها غير الجامع الكبير الذى مازال يحتفظ بتخطيطه الأصلى .

كانت القطائع أول مدينة أنشئت فى وادى النيل فى العصر الإسلامى ، روعى فى أنشائها وتخطيطها القواعد الفنية التى أتبعت عند تأسيس مدينة سامرا فى العراق ولما كان الخليفة المعتصم بالله قد أمر قائده أشناس ببناء سامرا عام ٨٣٦ م بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد ورجال حرس الخليفة الأتراك ، فإن ابن طولون بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى أن يتلافى الخطر بنفسه فتدارك الأمر وأنشأ تلك الضاحية ليبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة مالكة واتخذها بعده خلفاؤه من أسرته . كانت أوجه الشبه متقاربة جدا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا ، فقد كانت كل منها مقسمة إلى خطط أو قطائع تضم كل قطعة منها للسكان الذين تجمعهم رابطة العرق أو رابطة العمل ، وأصبح اسم القطائع علما على مدينة ابن طولون .

وأنشأ ابن طولون بيمارستانا فى سنة ٢٥٩ هـ ــ ٨٧٢ م فى الفسطاط وأنفق عليه ستين ألف دينار وقد شيد حمامين لهذا المارستان ، أحدها للرجال والآخر للنساء وقد بقى هذا البيمارستان قائما وشاهده المؤرخ المصرى القلقشندى (ت ١٤١٨).

ومن علماء العصر الطولونى ، العالم الرياضى شجاع بن أسلم المصرى

(أبو كامل) وكان عالم زمانه وحاسب أوانه وله تلاميذ تخرجوا بعلمه ، كما قال عنه ابن القفطى فى كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء . ونذكر أيضا الكيميائى الأخميمى عثمان بن سويد ، ونسبت إليه مؤلفات شتى وقد عاش حوالى عام ٩٠٠ م .

وقد كان على أيام الطولونيين والإخشيديين بالفسطاط سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تجرى فى دكاكينها المناظرات والندوات :

القاهرة

الحاضرة الرابعة (٩٦٩ - ١١٦٩ م)

تقع مدينة القاهرة على خط طول ٤َ ٢ً ٣٠° وعلى خط عرض ٣٠ ،َ٣ ٥َ ٢٨° وتبعد عن النقطة التي يتفرع عندها نهر النيل بمسافة ٢٤ كيلو مترا تقريبا ، وتقوم القاهرة على الشاطىء الشرقي منه ، ويحف بها من جهة الشرق سلسلة تلال المقطم ذات الطبقات الصخرية الجيرية التي تمون القاهرة بأحجار البناء ، المائلة إلى اللونين الأحمر والأصفر ، وسطحه قاحل أحدب لا تكسوه الخضرة ولا تنبت فوقه الأشجار ولا يجرى في وديانه ماء وكلما اتجه المقطم نحو الشمال قل ارتفاعه تدريجيا(١) تنبسط مدينة القاهرة منحدرة مع سفحه تدريجيا نحو شاطىء النيل . وكان نهر النيل في الأزمنة السابقة يمر بجوار المقطم مباشرة ، ويبلغ ارتفاع سطح القاهرة عن منسوب البحر بمقدار ٥و١٥ مترا . والناظر من قمة الجبل نحو الجنوب يرى النيل يخرج من واد متسع ذى زرع ومحاط بالحقول الخضراء وبأحراش النخيل ، وكلما اتجه نحو الشمال ازداد الوادى اتساعا ، ويستمر النيل في جريانه حتى يتفرع عند القناطر الخيرية مكونا الدلتا الخضراء حتى يصب مياهه في البحر المتوسط .

وفي تلك المنطقة التي تقع في جنوب النقطة التي يتفرع منها النيل ، أعدت الطبيعة مكانا جعلته صالحا لأن تبنى عليه حواضر وادى النيل . ولذلك شيد

---

(١) ينتهى المقطم في الشمال بالجبل الأحمر عند العباسية ، وتخرج من السلسلة عدة نتوءات نحو الغرب كتلال زينهم وعين الصيرة وقطع المرأة (جبال حمدان) .

المصريون منذ فجر التاريخ عواصمهم ، ومراكز دفاعهم فى هذه المنطقة الضيقة حيث يسهل الدفاع وصد المغيرين القادمين من الشمال والقاصدين غزو الوجه القبلى ، كذلك يسهل دفع المهاجمين القادمين من أعالى النيل للإستيلاء على دلتا مصر ، ومن ذلك شيد المصريون القدامى قبل بناء الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة مدينة منف غربى النيل ، ومدينة هليوبوليس حيث أراضى المطرية وعين شمس ، وبابليون (مصر القديمة) التى تعرف اليوم بقصر الشمع .

وبالإضافة إلى ما لهذه المنطقة من مزايا استراتيجية ، فان لها مزايا تجارية لا يستهان بها ، إذ أعدتها الطبيعة لأن تكون مركزا تجاريا وذلك لتفرع نهر النيل عندها وتوسطها بين شمال البلاد وجنوبها ، وكانت سفن أهل الجنوب تصعد النيل حتى موانىء هيليوبوليس ، وبابليون ومنف قبل الفتح العربى ، ثم الفسطاط والمقس وبولاق وأثر النبى بعد الفتح ..

وهناك وجهات نظر أخرى تتعلق بمزايا أو عيوب الموقع الذى اختاره القائد جوهر لتأسيس القاهرة . صحيح ان جوهر نظر إلى الموقع من الناحية العسكرية وهو فى ذلك كان على حق . غير أن الخليفه المعز لدين الله حينما قدم إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣) لم يرق فى نظره موقع القاهرة لأنها بغير ساحل ، وقيل أنه تحدث إلى قائده جوهر قائلا له : « فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقس (ميدان رمسيس) ، فهلا كنت بنيتها على الجرف ؟ (منطقة الرصد) (١) . وربما كان المعز على حق ، فان منطقة الرصد التى أشار إليها منطقة جميلة تشرف على النيل والجبل ، وبركة الحبش وجمعت بين السهل والجبل ، وبين الخضرة والماء .

ومع ذلك فان الخلفاء الفاطميين بعد المعز لدين الله لم يفهم مواطن الجمال

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص١٢٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧١ والرصد هو المرتفع الصخرى القائم على يسار الذاهب الى المعادى تجاه أثر النبى .

فى أطراف القاهرة ، فانتفعوا بها وبشاطىء النيل وحافتى الخليج ، بما أنشئوه من المناظر والبساتين والضواحى فامتد العمران، إلى خارج أسوار القاهرة .

تلال المقطم

ولنعد الآن إلى سلسلة تلال المقطم وهى الحد الشرقى لمدينة القاهرة ، وقفت عندها مئات السنين وحمتها كما وفرت للمدينة مواد البناء ، وفضلا عن ذلك فقد منحت القاهرة جفاف الهواء المنشط وإن لم تيسر لها زحف العمران ، باستثناء ما حدث فى السنوات الأخيرة فى أعقاب إنشاء مدينة المقطم ، إذا لم ننس مدن الموتى أو مقابرهم التى تحتضنها السلسلة الجبلية من مقبرة الغفير فى الشمال إلى مقبرة الامام الشافعى فى الجنوب

والواقع أن المقطم منع القاهرة من التوسع نحو الشرق وكادت تختنق فى هذا الجانب وفرض عليها امتدادا نحو الشمال والشمال الشرقى والغرب كما حدث فى أيامنا . كانت سلسلة المقطم بمثابة خط القاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها ، وبينما لم يعد اجتيازها النيل عقبة على الاطلاق ، على الأقل منذ القرن الماضى ، فقد ظل محور المقطم منذ بداية المدينة إلى اليوم عقبه طبيعية قاسية . ومن الناحية التاريخية ، خلال العصور الوسطى ، فأن ا ضان المق م المباشرة التى نشأت فيها هى بطبيعة الحال «النواة النووية» للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها(١) حتى قبل بناء قلعة الجبل ، فدائما منذ الفتح العربى كان مقر الحكم لصيقا أو يكاد بسفوح المقطم فى الشرق ، ومن حوله كانت تترى أحياء الموظفين والأعوان والمقربين وكبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينما كانت بطائح وشطوطه النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك وأراضى البعل

---

(١) القاهرة : ترجمة يحيى حقى ، من المقدمة الممتازة التى كتبها د . جمال حمدان كتاب الهلال ، العدد ٢١٦ مارس ١٩٦٩ .

ويهددها خطر الماء من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين للمدينة ، وأحيانا ملاعب ومتنزهات . . . ألخ . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أخذت القاهرة تهجر تلال للقطم وتزحف إلى غرب النيل ، وأخذ كثير من أجهزة الحكم والمؤسسات تغادر قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام نحو الغرب والشمال والشمال الشرقى وليس يخفى على أحد أن القاهرة — اليوم — أكبر مدائن أفريقية والشرق الأوسط ، وأكثرها ازدحاما بالسكان فهى كادت تنفجر . . . .

النيل الخالد

والظاهرة الجغرافية الثانية ، بالنسبة إلى القاهرة هي النيل ، الذى كان إلى عهد ليس ببعيد ، الحد الغربي لمدينة القاهرة ، فلم تتجاوزه للمدينة الا فى منتصف القرن التاسع عشر . ولا يخفى أن الشاطىء الشرقى للنيل فى أيام الفتح العربى كان يمس حصن بابليون وعلى مسافة صغيرة من جامع عمرو بن العاص .

وتكاد تتفق كلمة المؤرخين الجغرافيين على أن الشاطىء الشرقى للنيل عند دخول العرب مصر كان يمر بناحية أثر النبى جنوب مصر القديمة ، ثم يتجه إلى الشمال بجوار شارع أثر النبى إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ، فيسير النيل بحوار هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مارى جرجس ، فيسير مارا بقصر الشمع (بابليون) ، فجامع عمرو ثم يسير محاذيا شارع سيدى حسن الأنور إلى نهايته ثم يتجه شمالا مارا بعدة شوارع حتى يصل إلى شارع محمد فريد ويستمر إلى نهايته عند التقائه بشارع رمسيس ثم ينعطف النهر إلى الشرق حتى يصل إلى ميدان رمسيس، فشارع غمرة ثم يسير بعد ذلك شمالا محاذيا لخط السكة الحديدية (مصر — اسكندرية) ثم ينحنى قليلا نحو الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالى عند ترعة الاسماعيلية (شبرا) .

وقد انحسر النيل عن أراضى كثيرة فى غرب القاهرة الفاطمية ، وظلت هذه

الأراضي مواطيء رطبة تملؤها المستنقعات والخلجان والبرك ولا تصلح للتعمير والسكن الا بعد انحسار النيل عنها ومرور قرون من الارساب والصلابة ، فلم تظهر أرض اللوق الا منذ الأيوبيين ، وأرض الازبكية الا منذ أيام الفاطميين وكانت قطعة منها تغطيها بركة بطن البقرة (الأزبكية فيما بعد) . أضف إلى هذا كثرة الجزر في النيل في المنطقة التي تقابل وسط القاهرة .

الصحراء

وأينما أقبلت على القاهرة فلا بد أن تمر بواحد من مداخلها الصحراوية — من الشرق أو من الغرب أو من الجنوب ، فلولا نهر النيل لكانت مدينة صحراوية ماثلة في الماثة ، شأنها في ذلك كشأن القيروان التونسية . فالقاهرة كما قال عنها الكاتب البريطاني ، « ديزموند ستيوارت »(١) هي بنت الصحراء ، وأكبر المدن الصحراوية وتبلغ مساحتها ٤١٤ كيلو مترا مربعا،ولها لون صحراوي، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء غير طريق السيارات : يبدأ من البحر المتوسط ، ويمتد قرابة مائتي كيلو مترا وسط بيداء مكسوفة وينتهي عند سفح هضبة الأهرام المشرفة على وادي النيل .

قاهرة الفاطميين

بعد أن نجح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في تأسيس دولته الافريقية ومد حدودها إلى ساحل المحيط الاطلسي عزم على فتح مصر . وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما وقد حققها .

كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة فطلب إلى قائده جوهر الصقلي أن

---

(١) ديزموند ستيوارت · القاهرة وترجمة – يحيى حقي – ومقدمة د . جمال حمدان– دار الهلال .

يضع الخطة العسكرية ويجهز حملته، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار .

وبدأت الحملة سيرها ، فوصلت إلى الاسكندرية ووقعت فى قبضته ثم تحركت إلى الجيزة واستولى جوهر عليها فى ٦ يوليو ٩٦٩ م وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان . وسحق الجيوش التى أعدت للدفاع على الشاطىء الشرقى للنيل .

دخلت القوات الفاطمية تحت قيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس، وعسكرت فى السهل الرملى الواقع إلى الشمال . وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم . ومن الغرب الخليج (ردم فى أواخر القرن التاسع عشر) الذى يصل بين شمال الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خاليا من البناء سوى بضعة مبان تتعلق ببساتين كافور وديرا مسيحيا اسمه دير العظام .

وفى مساء ذلك اليوم (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ — ٦ يوليو ٩٦٩ م) اختط جوهر موضع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز لدين الله تنفيذا لأوامر سيده. وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التالى لتهنئته وشاهدوا أسس البناء الجديد قد حفرت . وبنى جوهر سورا خارجيا من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة . وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المربع ٣٤٠ فدانا منها نحو سبعين فدانا بنى عليها جوهر القصر الكبير، وخمسة وثلاثين فدانا للبستان الكافورى ومثلها للميادين . والباقى وقدره مائتان فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبي قصبة القاهرة (الطريق الرئيسى).

وقد حفر السور فى ليلة مباركة وساعة سعيدة وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تتألف منها جيشه خطة . فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم . واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية ، واختطت الروم حارتين البرانية — والجوانية بقرب باب النصر .

كان قصد جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها . فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا واحتفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها .

ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التى أمدنا بها المؤرخ المقريزى ماعدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا معلومات عنه . وقد كانت القاهرة الأولى تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الذى امتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويله القريب من موقعة الحالى المواجه للفسطاط . ومن الشرق بموقع باب البرقة والباب المحروق المواجهين للمقطم . ومن الغرب بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعداً عنه بنحو ثلاثين متراً .

المعز لدين الله

وفى يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يخترقها . وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه . ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين إستحضر جثثهم معه فى توابيت ، وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة وخطب خطبة العيد .

فكأن القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل خططها لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجىء إليه . كانت القاهرة مدينة متواضعة للدولة الفاطمية الناشئة . واستمرت حينا بعد قيامها مدينة عسكرية

تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من الغرب واتخذ مصر موطنا له (٣٦٢ هـ) ٩٨٣/٩٧٣ م

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « المدينة الملوكية » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة . وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجند على الطريقة البيزنطية ، وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار الشعب .

ولما مرت الأعوام اتسعت القاهرة ونمت ثم تبوأت مكانتها العظيمة ، وبعد أعوام اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معا واحدة من مدائن الإسلام المتألقة فى العصور الوسطى .

اسوار القاهرة وابوابها

شيدت أسوار القاهرة الأولى من اللبن الكبير . وقد ذكر المؤرخ — المقريزى أنه لم يبق من آثار هذا السور شيء فى عام ١٤٠٠ م . وذكر أيضاً أنه شاهد جزءا طويلا من السور الذى شيده جوهر قائما على بعد خمسين ذراعاً من السور الحالى (وهو من أعمال صلاح الدين) فى المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطة حتى دمرت عام ١٤٠٠ — ١٤٠١ م .

هذا هو السور الأول الذى بناه جوهر القائد .

أما السور الثانى للقاهرة فقد بناه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) خارج سور جوهر وليس على أساسه . وكان مثله فى أن مادة بنائه كانت من اللبن للجدران ، ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج .

أما السور الثالث فقد ابتدأ فى عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦هـ وقد كان حينذاك وزيراً للعاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣/١١٧٤ م) وصار سلطانا ندب للعمل فى السور الطواشى بهاء الدين قره قوش الأسد. فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن. وبدلا من أن يحيط به القاهرة وحدها، قرر أن يطوق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط، ولكنه توفى قبل أن يتم له ذلك.

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان. ففى الجنوب باب زويله. وكان فى الأصل بابين بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر كانا عند مسجد ابن البناء، وباب الفرج، وفى السور الشمالى باب النصر وباب الفتوح. وكان فى الجهة الشرقية باب القراطين (المحروق)، وباب البرقية. أما فى الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك: باب سعادة وهو أول أبواب السور الغربى، وباب القنطرة أو الجسر.

الجامع الأزهر

كان جوهر بعد عام فتح الفاطميين مصر قد أتم إنشاء القاهرة. فكانت أولى خطواته بناء الجامع الأزهر (٣٥٩ هـ ٩٦٩). ولما تم تشييده بعد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان عام ٣٦١ هـ (يوليو ٩٧٢ م) ويعتبر الأزهر أول عمل عمارى أقامه الفاطميون فى مصر لا يزال قائماً لليوم.

والتخطيط الأصلى الذى أنشىء هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التى لا يمكن الاهتداء إليه. فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون الماضية، كما أضيفت إليه زيادات عدة.

وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى. كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحى العالم الإسلامى ، من ساحل الذهب إلى جزر الملايو . فقد تقابل فى مقصوراته وقناته : المراكشى والجاوى ، والصينى والتونسى والجزائرى و الهولندى والزنجى تربطهم جميعاً رابطة الدين . وكان لكل طلاب أمة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والبلاغة والتفسير .

اخطاط القاهرة الفاطمية

فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تالف منها الجيش الفاطمى خطةعرفت باسمها، وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتى :

١ — حارة الروم أو خطهم .

٢ — حارة برجوان أحد خدمة القصر فى أيام العزيز بالله نزار العبيدى .

٣ — حارة زويلة

٤ — حارة الجدريه

٥ — حارة الأمراء

٦ — حارة الديلم

٧ — حارة الباطلية

٨ — حارة الكافورى

٩ — حارة قائد القواد : تعرف اليوم باسم حارة قصر الشرك

١٠ـــ حارة المعطوف

١١ـــ حارة الوزيرية منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس

١٢ـــ حارة المحمودية « أو المصامدة

ولقد زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثيراً فى أيام الأيوبيين والمماليك وقد وصفها بافاضة المؤرخ المقريزى فى خططه المعروفة .

القصور الزاهرة

كان أهم مازين القاهره الفاطمية قصورها الزاهرة . وقد أفرد المؤرخ المقريزى فى وصفها ما لا يقل عن مائتى صفحة . وقد ذكرنا أن جوهر وضع أساس القصر الكبير فى نفس الليلة التى اختلط بها القاهرة . واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين . وقد اشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم . وكان لهذا القصر تسعة أبواب . كما كان هناك أمامه ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين .

أما القصر الصغير الذى لم يتم بناؤه إلا فى عام ٤٥٧هـ ـــ ١٠٦٥م (فى خلافة المستنصر بالله) فقد أمر ببنائه الإمام العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ ، وقد قال المؤرخ المسبحى عنه : لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب « وكانت للقصر عدة أبواب ويتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض . كان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغله تحيط به فتيات القصر .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومنظار جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى ، ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية

بالتوالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم فى مصر فسكنها السلطان الملك الصالح ووالده .

وفى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى وقد افتتحت فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنه ٣٩٥هـ - ١٠٠٤م وأستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل بن بدر الجمالى .

وكان العزيز ميالا إلى إقتناء الكتب فجمع جانباً كبيرا منها خصص لها قاعات فى قصره سماها « خزانة الكتب » .

جوامع الفاطميين

ومن بين منشئات الفاطميين فى القاهرة لم يبق إلا الأبواب الثلاثة ، وجزء من ور المدينة وخمسة مساجد من ستة أقامها الفاطميون . هى الأزهر ومسجد أمير الجيوش أعلى المقطم والجامع الحاكمى والجامع الأقمر وجامع المقس وقد هدم الجامع الظافرى المعروف بجامع الفكاهين ، ثم جامع الصالح طلائع الذى يواجه باب زويلة اليوم .

ومن الآثار الفاطمية الباقية إلى اليوم جامع الحاكم وهو لم يحتفظ إلا بشىء قليل جداً من عمارته القديمة وزخارفه الأصلية . وكان العزيز بالله هو الذى شيد جامع الحاكم عام ٣٨٠هـ بمعاونة وزيره ابن كلس . ثم أتمه الحاكم بامر الله وأكمل زخرفته وشيد مئذنته (٤٠٣ هـ) . وشيد الخليفة الآمر جامع الأقمر فيما بين القصرين ، وكان أول مسجد بنى من الحجارة المنحوتة .

أما مسجد الصالح طلائع . فقد أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م . كما يستدل على ذلك من الكتابة المنقوشة على واجهته البحرية .

القاهرة فى أيام الفاطميين

وكان شكل القاهرة فى زمن القائد جوهر مربعا تقريبا ، ضلعه ألف ومائتا

متر ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلاثمائة وأربعين فدانا ، منها قرابة سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان وهو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة ، رسمت بجانبي قصبة القاهرة . وكان سور القاهرة الغربى بعيداً عن الخليج بحوالى ثلاثين مترا ، وفى عام ٤٨٦هـ - ١٠٩٣م ، فى زمن وزارة الأمير بدر الجمالى ، وخلافة المستنصر بالله هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر ، وجعل عرض السور الجديد عشرة أذرع ، وبلغت مساحة القاهرة أربعمائة فدان ، فكان ما زاده بدر الجمالى حوالى ستين فدانا . ويمكن اعتبار هذه الزيادة التى فى داخل الأسوار أول زيادة طرأت على المدينة الأصلية وضمتها الأسوار القاهرية .

امتداد القاهرة وتوسعها

يستدل من مراجعة المصادر التاريخية(١) أنه فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (بين ٩٩٦ و١٠٢٠ م) توسعت القاهرة من ناحيتيها الشمالية والجنوبية . ففى الشمال خارج باب فتوح سكنت الطائفة الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات ، ويتوسطها اليوم من الجنوب إلى الشمال شارع الحسينية وشارع البيومى من باب الفتوح إلى ميدان الجيش .

وفى زمن الحاكم بأمر الله أيضاً أخذ الأهالى جنوب سور القاهرة الجنوبى يعمرون ويبنون خارج بابى زويلة والفرج ، وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادى عشر غير عامرة بالمبانى حتى مدينة القطائع الطولونية . فنهضت « ضاحية » امتدت تدريجيا حتى عظمت فى زمن المجاعة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر لدين الله (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) حينما أخذ يأفل نجم الفسطاط .

---

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ج ٤ ص ٤٥ .

وفى أواخر القرن الحادى عشر شيد الأمير بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع تاريخ هذا المسجد إلى عام ١٠٨٥ . كما أن هناك عدة مشاهد وقباب (أضرحة) شيدت خارج قاهرة الفواطم فى القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقيه وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المبانى الفاطمية التى شيدت خارج باب زويلة فى عام ١١٦٠م .

ولنرجع إلى ما ذكره المقريزى فى خططه عندما أشار إلى ما بناه الفاطميون فى ظاهر القاهرة : « توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية (العباسية اليوم) . وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل . . . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له القاهرة والآخر يقال له مصر » . ونسى المقريزى أن يذكر بالدقة تاريخ هذا التوسع العمرانى ، ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمى التالى ، فيذكر لنا أن عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠ م) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودى لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر وبأن « من كان له دار فى الخراب أو مكان فليعمره ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه » فلما نادى الوزير المأمون البطائحى ، عمر الناس ما كان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة . ولم يبق من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذى أقيم عليه جامع ابن طولون(١) . ولكن فى أيام

(١) المقريزى خطط ، ج١ ص ٣٠٥ .

صلاح الدين الأيوبي حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد عام ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل المساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسي حيث كانت نهاية تلك البساتين الخضراء .

جزيرة الروضة

وهناك في أقصى الجنوب ومقابل مدينة الفسطاط حيث يجري النيل تقابلنا جزيرة الروضة التي تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها . وفي أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصونها (٨٧٦م) وجعلها مقراً لخزائن أمواله وشيد فيها الدور ، كما أقام فيها دار صناعة للسفن الحربية وجعلها مقر ديوان الجهاد . وفي أيام محمد بن طغج الاخشيد أنشأ بستانا ودارا سماها « المختار » .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في نهايتها الشمالية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في عام ٤٩٠هـ — ١٠٩٦ م . وسماه الرّوضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية الأمراء الفاطميين بموقع الروضة التي أصبحت متنزها ومسكنا للأهالي .

انسحاب نهر النيل وظهور أرض جديدة

طرأ على ساحل النيل الشرقي في المسافة الممتدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع تغيرات على الأقل ، وذلك فيما بين عام ٦٨٨ م أي في زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ أثناء حكم محمد علي . ويهمنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة في العصر الفاطمي أن نشير إلى انسحاب النيل المرة الثالثة الذي ظهر حوالي سنة ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية (ونقصد انسحابه غربا وظهور أرض

جديدة) إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد فى عمرانها فتحول شاطىء النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب فى المساحة التى كانت بين جامع الطيبى (يقع اليوم بشارع الديورة (الأديرة) بالسيدة زينب) وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح ظهور المنطقة التى يقع فيها اليوم : كلية تجارة عين شمس(١) ، ومبانى وزارة التموين (القديمة) ووزارة البحث العلمى والرى والصحة ومجلس الشعب والجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية الليسيه ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ، ويمر فيها شارع شريف وامتداده إلى ميدان لاظوغلى .

القاهرة الفاطمية وما كتب عنها

وفد على مصر أثناء دولة الفاطميين عالم فارسى جليل ورحالة ترك لنا وصفا دقيقا لرحلته فى مصر وحضارتها فى عصر الخليفة المستنصر بالله ، هو ناصرى خسرو (١٠٠٢ - ١٠٦١م)(٢) وكان قد أقام بمصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (١٠٤٧ - ١٠٥٠ م) ودّون مشاهده بدقة واسهاب ، ووصف مدينتى الفسطاط والقاهرة وأماكن أخرى كما وصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو بن العاص ، كما تكلم عن الخليفة الفاطمى والفقهاء والدعاة الفاطميين ، كما درس الحياة الاجتماعية عن كثب وأطنب على ثروة مصر ورخائها اقتصاديا ، وصف القاهرة وصفا شائقاً وأسهب على أحوالها وجوامعها وبيوتها

---

(١) نقلت عام ١٩٧٤ إلى مدينة نصر ولم يبق فى مكانها سوى كلية التعاون .

(٢) عنوان الرحلة: سفرنامة .Sefer Nameh وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية ثم نقلها الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب إلى العربية بعد أن حققها وعلق عليها وهى رحلة تقع حوادثها من سنتى ١٠٤٥ م و ١٠٥٢ وقد طبعها معهد اللغات الشرقية التابع إلى كلية الآداب (جامعة القاهرة) ١٩٤٥ .

وحدائقها وقصورها وأسواقها وحرفها ، كما أنه أشار إلى صناعة الخزف الفاطمى ومميزاتها ، وسنقتبس موجزاً مما قاله الرحالة الفارسى :

ومدينة مصر (الفسطاط — القاهرة) ممتدة على شاطىء النيل الذى بنيت عليه القصور والمناظر بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل ، أما ماء المدينة فيجلبه السقاؤون من النيل على ظهور الدواب أو على ظهورهم . وأمام مصر جزيرة وسط النيل (الروضة) كان عليها مدينة فى وقت ما والجزيرة غرب المدينة ، وبها مسجد جمعة وحدائق ، وأقيم بين الجزيرة والمدينة (الفسطاط) جسر مؤلف من ست وثلاثين سفينة . ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الأخير ويسمونه الجيزة وبها مسجد لصلاة الجمعة . وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعونه ، وإذا كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ، ويعطى جرسا بيده ، ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا : قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب « . . . ويواصل الرحالة حديثه قائلا » : ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين ولو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس فى بلاد فارس ، فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها . أما الأمن الذى عاينته هناك فانى لم أره فى بلد من قبل .

الشاعر الأندلسى أبو الصلت

وفد الشاعر أبو الصلت أمية على مصر من دانية الأندلسية سنة ١٠٩٥ / ١٠٩٦ . فوصل إلى القاهرة واتصل بعلمائها ثم اعتقل فى أحد سجونها مدة ثلاث سنين وشهر ، ولما أفرج عنه بعدما لقى فيها من الخيبة ، شد رحاله إلى المغرب واستعاد صلته بيحيى بن باديس ، فوضع له رسالة يصف له فيها ماعاينه فى مصر عرفت باسم

الرسالة المصرية[١]) . وقد عنى أبو الصلت فى رسالته بالوصف البلدانى لمصر و نيلها وتصوير جمال ربوعها وسكانها ومذاهبهم وأخلاقهم وما تحتويه البلاد من الآثار ، كما أنه نوه بفضل بعض الأطباء ثم ذكر من لقبه بها من الأدباء والظرفاء والشعراء على شواطىء النيل وعند بركة الجيش حيث قال عنها : « إفترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور . ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء . . .

العلم والعلماء أيام الفاطميين

لم يخل ميدان العلم البحت من مساهمة العلماء المصريين ممن نبغوا فى الطب والفلك والكيمياء وعلم البحار والرياضيات وعلم طبقات الأرض وفن الحرب . . الخ ومن هؤلاء على بن رضوان ، وعلى بن يونس وابن الهيثم ، وعلى ابن النفيس ، وغيرهم .

اشتهر العلامة ابن يونس بالرياضيات والفلك فى العصر الفاطمى وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر هام فى علم الفلك . أما أبو الحسن على بن رضوان ابن على بن جعفر طبيب القاهرة المشهور ، فقد ولد فى الجيزة (٩٨٠ م) وتوفى حوالى ١٠٦١ م . وكان أبوه فرانا ولاقى فى تعلمه أهوالا حتى برع فى الطب . وله مخطوطان فى الطب بدار الكتب المصرية أحدهما بعنوان « فى دفع مضار

---

(١) عبد السلام هارون . الرسالة المصرية ــ أصلا مخطوط اقتناه العلامة أحمد تيمور بمكتبته الخاصة رقم ٦٠١ أدب بدار الكتب المصرية . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥١) . أنظر ترجمة ابن الصلت فى معجم الأدباء لياقوت

الأبدان بأرض مصر » وقد زاول صناعة الطب فى القرن الحادى عشر رئيسا للأطباء فى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢٠) والظاهر والمستنصر بالله . ولابن رضوان ما يقرب من التسعين بحثا فى الطب، أهمها كتاب الأصول فى الطب، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية(١) . وعلم ابن رضوان نفسه ولم يتلق الطب عن أستاذ ، ولذلك نجده يفخر دواما بذلك . وقد تبادل المسجلات والمناقشات الطبية مع ابن بطلان الطبيب النصرانى البغدادى(٢) .

وممن ازدهر ميدان الطب بهم فى مصر الطبيب على بن النفيس الذى كان فيما بعد رئيس الأطباء فى مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ٦٨٧ هـ(١٢٨٨). وقد كان إلى جانب اشتغاله بالطب من البارزين فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية فى عصره . وكتب ابن النفيس شرحا لتشريح ابن سينا ، وصلت الينا نسخة مخطوطة منه ، وقد وضح من دراستها أن هذا الطبيب المصرى اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى « دورة الدم من البطين الأيمن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الايسر » قبل أن يكتشفها الأوربيان ميشيل صرفت Michel Serfet سنة ١٥٥٦ وريالدو كولومبو(٣) ، ونذكر أيضا الطبيب أحمد بن محمد البلوى (ت ٩٩١م) والطبيب محمد بن سعيد التميمى وهو صاحب مؤلفات كثيرة ، ومن المسلم به عند المشتغلين بالطب وتاريخه أن أمراض العين كانت تعالج فى مصر والشام

---

(١) Max Meyerhof : Climate and health in old Cairo according to Ali Ibn Radwan. December 1928.

بحث القاه فى المؤتمر الطبى الدولى الدكتور ماكس ماير هوف .

(٢) لما طالت المناظرات الطبية سافر ابن بطلان من بغداد الى مصر ليرى مناظره، وأقام بها ثلاث سنوات ، واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبى أصيبعة فى المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها .

(٣) ماكس مايرهوف : مقالة عن ابن النفيس فى دائرة المعارف الاسلامية .

فى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ و١٣ م) بأسلوب علمى يفوق ما كان معروفا حينئذ فى بلاد العالم .

أما أبو على ابن الهيثم(١) فكان أعظم علماء المسلمين فى الفيزياء بل أعظم علمائها فى العصور الوسطى ولولاه لما أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن . وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوربا معظم معلوماتهم لاسيما فى موضوعات انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين(٢) .

وقد كاد الشرق أن ينسى ابن الهيثم بعد أن وسم وكتبه بالزندقة . ويخبرنا أحد تلاميذ الفيلسوف الاسرائيلى ابن ميمون ، وهو الحكيم يوسف السبتى ، أنه كان ببغداد تاجر اسمه عبد السلام الجيلى شهد احراق كتب أحد الفلاسفة ، وقد أحضرها له خطيب ونصب له منبر ليشرف على إحراقها ، فلما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم أشار إلى الدائرة التى مثل بها الفلك ووصفها بأنها الداهية ، والنازلة والصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد أن أتم كلامه خرقها وألقاها إلى النار(٣) .

---

(١) عاش فى القاهرة (القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر الميلادى) ولد فى البصرة واشتغل كثيرا بمؤلفات أرسطو وجالينوس . وأكبر كتب ابن الهيثم كتاب المناظر الذى ترجم وهذب باللغة اللاتينية – ولا يعرف من تلاميذه غير واحد بعد الفلاسفة هو ابو الوفا مبشر ابن فاتك القائد وهو أحد أمراء مصر .

(٢) مقال الاستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » أخرجته مجلة المقتطف بالقاهرة .

(٣) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ص١٩٤– ١٩٥ (De Bauer) .

ومن أطباء العصر الفاطمي موسى بن العازار طبيب المعز لدين الله وكان عالما بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات ، والطبيب على بن سليمان الذى عاصر ثلاثة خلفاء من الفاطميين ، هم العزيز بالله والحاكم بأمر الله والظاهر ، له تصانيف شتى منها « كتاب الحاوى » فى الطب وكتاب « الأمثلة والتجارب » و « كتاب التعاليق الفلسفية » وغيرها . ونذكر الكحال (طبيب العيون) ابن القاسم عمار بن على اشهر طبيبا للعيون فى القاهرة ويعتبره العلماء فى طليعة الكحالين فى العالم الإسلامى ، ومعاصره الكحال على بن عيسى ، والطبيب اليهودى سلامة بن رحمون أبو الخير ، قال عنه الرحالة أبو الصلت : أنبه من رأيته منهم (يقصد أطباء مصر) ، وأبو يعقوب إسحق بن ابراهيم طبيب الحاكم بأمر الله الخاص .

ومن أشهر أطباء العصر الفاطمي أبو الحسن سهلان بن عثمان (Sahlan) وكان عالما وطبيبا حاذقا ، وقد علا جاهه فى أيام العزيز بالله واقتنى المال الجزيل وقد توفاه الله عام ٩٩٦ م . ومن أعيان الأطباء ابن مقشر ، وداود بن أبي البيان وماسويه الماردينى الصيدلى وأبو عمران موسى بن ميمون ، وأبو الوفاء المبشر بن فاتك الذى كان من أفاضل علماء مصر (توفى فى نهاية القرن الحادى عشر) وقد أجاد العلوم الرياضية والحكمية كما اشتغل بالطب ولازم زميله الطبيب على ابن رضوان . وللمبشر بن فاتك مجموعة من الأمثال نسبت إلى قدماء الحكماء عنوانها « مختار الحكم ومحاسن الكلم » ، جمعها هذا الحكيم فى القرن الحادى عشر وترجمت هذه المجموعة إلى الأسبانية تحت عنوان « قطع الذهب »[1] . (Los Brocados De Oros) وصدرت عدة طبعات منه ومترجمات ، أقدمها

---

(١) حقق الدكتور عبد الرحمن بدوى « مختار الحكم ومحاسن الكلم » وأصدره المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد عام ١٩٥٨ م ضمن منشوراته .

طبعة أشبيلية بالأسبانية سنة ١٤٩٥م وطبعة سلمنكا سنة ١٤٩٩م كما ترجم إلى اللاتينية والفرنسية .

أما الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الفريد فقد صدرت طبعتها فى ١٨ نوفمبر عام ١٤٧٧ أى منذ ٤٩٨ عاما ، طبعه وليم كاكستون (William Caxton) رائد الطباعة فى انجلترا . والجدير بالذكر أن الذى ترجم الكتاب الأيرل ريفرز (Earl Rivers) واسم الكتاب « أمثال الفلاسفة وحكمهم » وقد ظلت المؤلفات التى غذاها هذا الكتاب العربى ذات أثر فى عالم الفكر فى أوربا الغربية أكثر من أربعة قرون .

وقد ازدهرت مصر فى أيام الفواطم بطائفة من علماء كتابة التاريخ ، وعلى رأسهم المسبّحى (٩٧٧ – ١٠٣٩ م) وكان من أقطاب رجال الدوله الفاطمية . تولى الوزارة أيام الحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وشغل عدة مناصب هامة أخرى . ألف فى تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذى لم يصل إلينا ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة أن تاريخه « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة »(١) .

وقد كتب أوتيقيوس بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٩٣٩ م والمعروف باسم سعيد بن البطريق (ت ٩٤٠) عدة كتب تاريخية أبرزها كتابه المشهور « نظم الجوهر ، أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف عددا آخر من المؤلفات الطبية .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين : القضاعى(٢) والجوانى وأبو صالح

(١) محمد عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٣٦ .

(٢) ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة (٤٥٤هـ – ١٠٦٢م) وقد أوفده المستنصر سفيرا الى تيودورا امبراطورة قسطنطينية (١٠٠٥م) وألف المختار فى ذكر الخطط والآثار .

الأرمني ١) وابن عبد الظاهر صاحب « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية »(٢) وابن المتوّج « مؤلف ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل »(٣)، وابن الجيعان المتوفى فى أواخر القرن الثامن واضع كتاب « التحفة السنية » بأسماء البلاد المصرية . وهو عبارة عن ثبت للاقاليم والبلاد المصرية وذكر زماماتها وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها وذلك حتى (٧٧٧هـ - ١٣٧٥م) فى عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون . وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٨٩٨ .

---

(١) لأبى صالح مؤلف تناول فيه تاريخ الكنائس والأديار المصرية واحياء الأقباط والنصارى وتاريخ القديسين والبطاركة وبعض أعمال الدولة والطاعها وخراجها — وقد طبع هذا الكتاب فى أكسفورد عام ١٨٩٥ - مصر الاسلامية للدكتور م. ع عنان . ص٤٠ .

(٢) هو القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ١٢٢٣م . وتوفى بها سنة ١٢٩٢ .

(٣) هو القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج (١٢٤١ - ١٣٣٠ م)

الأزهر الشريف وأثره النبيل

فى ألف عام

إن الإسلام والأزهر الشريف يربطان مصر بأنحاء العالم الإسلامى برباط وثيق هو رباط الإسلام القوى ، والنيل المبارك يصل بيننا وبين بلاد كثيرة فى أفريقية .. وكفى أن ندرك أن العقيدة تربطنا بأكثر من مائة مليون أفريقى ، من أصدقائنا المسلمين الذين نبادلهم ويبادلوننا الإخاء والمحبة والتعاون .

يعتبر الأزهر مركز إشعاع روحى ينهض لتأدية رسالته النبيلة فتفيد منه شعوب العالم الإسلامى ، كما يغترف من علومه آلاف الطلاب الأسيويين والأفريقيين والأوربيين الذين يفدون إلى كليات الجامعة الأزهرية ، بالإضافة إلى البعوث الكثيرة التى يبعثها إلى البلدان الشقيقة ، ونذكر فى هذا المجال أيضاً جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى نشر المعرفة الإسلامية ، وما يبذله من المنح للطلاب المجدين . حيا الله الأزهر ...

إن تاريخ الأزهر هو تاريخ الثقافة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجرى إلى اليوم ، وإذا كانت مصر قد وضعتها الأقدار فى هذا الموقع الخطير على خريطة العالم حيث تقع مركز اتصال بين القارات ، ترسل من أشعتها الثقافية والحضارية إلى شتى أنحاء العالم شرقية وغربية ، فان الأزهر قد نهض فى هذا المكان — ولا يزال يقوم — بدور رائع عظيم الأثر فى الفكر الإسلامى ، بل والفكر الإنسانى ، يرسل دعاته وأفكاره فى كل اتجاه ينشر العلم والمعرفة ، وقد وقف الأزهر ألف سنة أو تزيد ، يصارع الحوادث .

وضع أساس الجامع الأزهر كما ذكرنا فى ١٤ من رمضان سنة (٣٥٩هـ - ٩٧١م) تحت إشراف جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى وتم بناؤه فى سنتين ، وفتح الجامع الأزهر للصلاة لأول مرة فى ٧ من رمضان ٣٦١هـ . فلم يلبث أن تحوّل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية ، يجتمع فيها طلاب العلوم والفنون من كافة الأقطار . وكان الخلفاء الفاطميون حريصين على الاهتمام بهذا المعهد الكبير وتزويده بكثير من الكتب وتخصيص موارد باهظة للانفاق على طلابه الوافدين عليه ، وبقى الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى وكان الخليفة بنفسه يؤم الناس فى صلاة عيدى الفطر والأضحى التى تقام فيه ، وقام الأزهر بدور كبير فى إذكاء الحركات القومية فى مصر فى العصور القديمة والحديثة وقد تجلت زعامته الشعبية بأروع مظاهرها أيام الحكم العثمانى والاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) حينما تولى شيوخه وطلابه قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها واحتمل الأزهر خلال تلك الحوادث أقسى التضحيات .

وكان الأزهر ورجاله يغذون الثورات الوطنية بخطبهم وكتاباتهم ويتركون أثراً فعالا فى تكوين شخصيات ثورية مثل أحمد عرابى قائد الثورة العرابية الذى تلقى علومه فى الجامع الأزهر أربع سنين والسيد جمال الدين الأفغانى والسيد عمر مكرم والشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، وغيرهم من الذين أثاروا العقول لمحاربة الجهل والظلم والعدوان. وجدير بالذكر أن الزعيم سعد زغلول قائد ثورة سنة ١٩١٩ المصرية تلقى العلم فى الأزهر وقد تخرج من الأزهر قبل دراسته للحقوق ، ويعتبر سعد زغلول من المكافحين الذين حاولوا إعادة العزة والكرامة لطبقات الشعب .

ومن أكبر ما اهتمت به الحكومة المصرية إنشاء جامعة الأزهر الحديثة وفتح الكليات العلمية بها وكلية خاصة للبنات بشعبها المختلفة من علوم إسلامية وطب وأدب وفلسفة وعلوم . وجامعة الأزهر لا تختلف غايتها عن غاية الأزهر الشريف فى تاريخه المديد إلا من تغيير الخطط وتعديل الوسائل بقدر ما تتطلبه

الحياة المتطورة ، ولن تنحرف طريقها عن طريق أبيها الجليل « الجامع الأزهر » فان التاريخ الصحيح يقول إن الأزهر كانت تدرس فيه ، فى ابهائه وصحونه ، إلى جانب التفسير والحديث والفقه والأدب علوم الفلك والهيئة والميقات والطب والرياضة والحساب ، وكانت تعقد فيه حلقات العلم للنساء ، وكلية البنات الأزهرية هى نواة لجامعة إسلامية للبنات ، لكى يقوم الأزهر بمختلف هيئاته ومعاهده وكلياته على إسداء الخير النافع العام إلى العالم الإسلامى كله .

والأزهر جزء بارز فى كيان المجتمع الإسلامى ، وهو تراث مجيد يعتز به كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يجاهد فى ميادين العلم والدين والإصلاح الاجتماعى والخلقى ، والسياسة فى العالم العربى والإسلامى .

وإن دور الأزهر فى عشرة قرون حمى العالم الإسلامى من الانهيار أمام جحافل الصليبيين والتتار وأمام طغاة الحكام وعدوان المستعمرين ، كما انفرد عن جامعات العالم الأخرى بخصائص لم تتيسر لغيره من ميزات تربوية وثروات فكرية عالمية وأساليب لغرس حب البحث والدرس للطلاب وتعويدهم على الجد فى طلب الكمال . هذا إلى ما بذل علماؤه وطلابه من جهود فى سبيل إعلاء منار الإسلام والمحافظة على تراثه المجيد . وقد ظل الأزهر — وسيظل — يؤدى رسالته على أكمل وجه ويقوم بأجل الخدمات للعالم الإسلامى فى جميع العصور ويرسل أشعة العلم والعرفان فى أقطار العالم ، ويبقى مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الإسلامية من مختلف الأمم والشعوب(١) .

---

(١) محيى الدين الألوانى : مكانة الأزهر فى العالم الاسلامى — مقال بمنبر الاسلام (عام ١٩٦٦) .

أنظر أيضاً د. عبد الرحمن زكى : الأزهر وما حوله من الآثار . القاهرة ١٩٧٣ .

ولا يخفى على من يتتبع تاريخ الأزهر أن علماءه قد أسهموا فى جميع المعارف والعلوم بالدرس والبحث والتأليف سواء فى العلوم الدينية واللغوية وكذلك فى المنطق والحساب والهندسة والجبر والفلك ، ولما بدأت النهضة العلمية فى مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعا إلا فى رحاب الأزهر ، لقد كان معظم المبعوثين من مصر — مثلا — إلى أوروبا من رجال الأزهر ، فلما عادوا بعد أن تخصصوا فى مختلف العلوم والفنون وضعوا أسس النهضة العلمية والفنية فى وادى النيل . وكان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا أساس النهضة الحديثة فى مصر ومنهم أساتذة جامعة القاهرة وبقية المعاهد ومدرسة الألسن ومدرسة القضاء الشرعى وكلية دار العلوم وغيرها من مراكز الثقافات ودور العلم التى تفرعت من دوحة الأزهر الشريف .

القاهرة

فى عصر الأيوبيين (١١٦٩ - ١٢٥٠م)

أصبحت القاهرة الأيوبية فى أخريات القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر تتميز عن ذلك المعقل الفاطمى المحدود ، وأضحت تشغل مساحة قدرها عشرة أمثال ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المبانى ذات الطابع الهندسى المستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم ، وكان الفضل فى هذه الانجازات لصلاح الدين الأيوبى وخلفائه ، غير أنه مات قبل أن يراها ، وسنقرأ ما قاله أحد كتاب سيرة هذا السلطان العظيم عن منجزاته التى ما زالت باقية بيننا.

قلعة صلاح الدين

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها . فقال : « أن أفردت كل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاطىء . وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة فى عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشى بهاء الدين قوةقوش الأسدى أحد أمرائه ، ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة النص التذكارى لبنائها وذكر فيه عام ١١٧٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينتهى بناء أسوار القلعة ، فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم البناء .

وأراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) والقلعة سورا واحدا يحيط المدينة الكبرى بأسرها ، فبدأ عمارة هذا السور الأيوبى (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله . وفى عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قرة قوش الاسدى لعمل هذا السور ، فبناه بالحجارة ، وزاد فى سور القاهرة الغربى الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة المقس فى نهاية السور الشمالى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك(١) ثم زاد فى سور القاهرة الشمالى الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر فى أقصى الشمال الشرقى للقاهرة . ومن هذا البرج الذى ما زال باقيا فى مكانه إلى باب البرقية فى السور الشرقى ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع العمل لوفاة صلاح الدين .

كان لبناء القلعة وامتداد السور حول القاهرة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية . ذلك لأن تركيز الادارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها ، وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى (الفاطمية) وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعى ، وجامع عمرو بن العاص ، وفى القاهرة الفاطمية أيضاً . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية تيسر توسع القاهرة فى ذلك الاتجاه الجديد .

---

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت تجرى المياه .

ظهور أحياء جديدة

• حي بركة الفيل

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية وقد تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) قبل نهاية العصر الأيوبى، ولم يبق من أرض البركة دون بناء حتى عام ١٨٠٠ إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر الوالى عباس الأول وهى المعروفة بسراى الحلمية وحديقتها . وفى عام ١٨٩٤ قسمت أراضى الحديقة وفى عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيه ، وبيعت وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التى تحد اليوم شمالا بسكة الحبانية ، ومن الغرب بشوارع درب الجماميز واللبودية والخليج المصرى ، ومن الجنوب شارع الشيخ عبد الحميد اللبان (سابقا مراسينا) ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى أول شارع الألفى ، ومن الشرق تكملة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم ، فسكة عبد الرحمن بك وكلاهما فى الحلمية الجديدة ، وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى (١) .

وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة نمت فى القاهرة على أيام الأيوبيين ، ثم ازدهرت كحى ارستقراطى على أيام المماليك .

---

(١) محمد رمزى : تعليقات النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

جبل يشكر ومناظر الكبش

يطلق اسم الكبش على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون ولا زالت هذه المنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش تطل على شارع الشيخ عبد المجيد اللبان . وفى أثناء سلطنة الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على هذا الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون ، وبركة الفيل ، وعلى البساتين التى فى بر الخليج الغربى من المقس إلى قسم الخليج ، والتى فى بره الشرقى من باب زويلة إلى الصليبة ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت متنزها جميلا يقصده الناس . وقد تأنق الملك الصالح أيوب فى بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك نجم الدين الصالح الأيوبى من المنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين فى عام ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) ، فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

جزيرة الروضة

وفى أقصى الجنوب وفى مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩ م) قلعة الروضة أو القلعة الصالحية وقد شرع فى حفر أساس القلعة فى يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ. وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت للقبط بجانب مقياس النيل وأدخلها فى القلعة التى شيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا ، وأقام بها جامعا غرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والازواد خشية من محاصرة الفرنج ، فانهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر . وذكر المقريزى أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية . وموجز القول أن

هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لاتقل عن ٦٥ فدانا فى جنوب جزيرة الروضة .وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عددهم ألف مملوك بعد انتقاله من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فأمر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المعزية التى كانت برحبة الجنة بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه ، فأخذوا كثيرا من سقوفها ونوافذها وغيرها ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

القاهرة الأيوبية فيما كتبه الرحالة عنها

* قصد القاهرة فى أيامها الأيوبية ثلاثة من مشاهير الرحالة العرب الذين سجلوا لنا مشاهداتهم عن القاهرة فى القرن الثانى عشر ، وهؤلاء الرحالة هم : ابن سعيد الغرناطى (ت فى الربع الأخير من القرن ١٣ م) وابن جبير المغربى (١١٤٥ — ١٢١٧) وعبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ — ١٢٣١ م) .

* وصف ابن سعيد القاهرة(١) بعد أن أدى فريضة الحج مع أبيه ، ثم قام برحلات طويلة فى العراق والشام والحجاز وتونس وأرمينية. وقال عن القاهرة :

« .. والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات، وأعظم ديار لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها .فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء .

ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناء والبطارخ ، وفيها جوار

---

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب. أتمه ابن سعيد بعد أن بدأه والده وجده من قبل . حققه جماعة من أساتذة جامعه القاهرة عام ١٩٥٠ .

طباخات أصل تعليمهن فى قصور الخلفاء الفاطميين ولهن فى الطبخ صناعة عجيبة.
وفى القاهرة أزاهير كثيرة وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه والرمان والموز
والتفاح ، وأما الأجاص (الكمثرى) فقليل غال وكذلك الخوخ ، وفيها الورد
والنرجس والنسرين والنينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر .
وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل
منه الا القليل ومع هذا فشراؤه عندهم فى نهاية موسم الغلاء ..

وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عماراته فيما يلى
القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع
فيه الشرب وذلك فى بعض الأحيان وهو ضيق ، عليه فى الجهتين مناظر كثيرة
العمارة بعالم الطرب والتهكم والمخالعة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون
العبور به فى مركب ، وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان وفى ذلك قال ابن سعيد
يحذر الناس من التنزه فى الخليج .

أما ابن جبير فقد ولد فى بلنسية بالأندلس سنة ١١٤٥م وبعد أن تلقى العلم ترك
غرناطة مع صديق اسمه احمد بن حسان فى ٣ فبراير سنة ١١٨٣ . وفى سنته أقلعت
سفينتهما إلى الإسكندرية فوصلها فى ٢٦ مارس ١١٨٣ ثم رحل عنها إلى القاهرة
فى ثالث إبريل ١١٨٣ فوصلها فى اليوم السادس من الشهر المذكور . يحدثنا ابن
جبير عن القاهرة قائلا عنها : « مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ، ثم بدأ زيارة
معالمها الرئيسية ومدارسها وآثارها ومشاهدها المباركة وأولها المشهد الذى فيه
رأس الحسين بن على رضى الله عنهما وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ،
ثم قصد مشهد الإمام الشافعى (رضه) وبأزائه مدرسة حافلة بجوارها حمام
ومرافق كثيرة . وشاهد أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة . ومما شاهده

النفيس الذى بـــدأ حياته الطبية على أيام الأيوبيين ، وأحمد بن عثمان أبوالعباس وأبو سليمان داود بن أبى المنى (ت ١١٨٧) والصيدلى أبو المنى بن أبى نصر الـكوهين ويعرف بالهارونى العطار . وقد ازدهر اسمه فى أخريات أيام الأيوبيين وأول عصر المماليك ، من مؤلفاته : منهاج الدكان ودستور الأعيان ، وتعتبر من أهم ما ألف فى العربية فى علم الصيدلة من ناحيتى العبارة والموضوع وقد نالت مؤلفاته شهرة طيبة .

* وفى الفلك،عرف اسم الفلـكى المصرى قيصر بن أبى القاسم العالم الرياضى والمهندس . ولد بأصفون من عمال قنا بصعيد مصر عام ١١٧٨ / ١١٧٩ وتوفى بدمشق عام ١٢٥١ أثناء خدمته تقى الدين محمود صاحب حماة ويعرف عنه أنه صنع كرة فلـكية فى عام ١٢٢٥ م ، انتقلت إلى كاردينال بورجيا فى فللترى حتى عام ١٨٠٩ ، ثم آلت إلى متحف نابولى الوطنى حيث توجد اليوم . وقد نقش على الـكرة اسم صانعها بالخط الـكوفى وسنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٤ م) وتعتبر ثانية أقدم مثيلاتها فى العالم .

العلماء ، وفى أثناء اقامته بمصر كان موضع اكرام علمائها ورؤسائها وقد أطنب البغدادى فى وصف آثار مصر ، وأعمل الفكر فى بيان عظمتها ، كما وصف حمامات مصر وقال إنه لم يشاهد أتقن منها (وصفا) ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً . والواقع أن عبد اللطيف أعجب بكل ما شاهد فى القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة(٢).

العلم والعلماء أيام الايوبيين

بعد أن انتهى صلاح الدين الأيوبى من القضاء على آثار الفاطميين الفكرية وبناء دولته على أسس مدعمة ، بدأ هو وأسرته ببناء سبع مدارس لدراسة علم الحديث فى صحاح الكتب ، كالبخارى ومسلم ، أربع منها بحى الصاغة فى حارة الصالحية المجاورة لمسجد الصالح نجم الدين أيوب بالنحاسين وبعض أجزائها باق حتى الآن . والثلاث الأخرى بناها بجوار مسجد الأمام الشافعى ، وكان صلاح الدين يتبعه فى مذهبه الفقهى ويحرص على نشره فى مصر . ثم أنشأ الملك الكامل ابن السلطان العادل مدرسة الحديث الملاصقة لمدرسة السلطان برقوق ... وبذلك عادت مصر ثانية دولة سنية .. شافعية المذهب الفقهى إلى حد كبير .

* وازدهرت الحياة الأدبية فى مصر فلم تخل القاهرة من الشعراء المبرزين أمثال بهاء الدين زهير ، وجمال الدين بن مطروح ، وابن سناء الملك ، وابن البنية وكان بها عدد كبير من كتاب الدواوين وأشهرهم ابن الصيرفى والقاضى الفاضل عبد الرحيم الذى تولى رياســـة ديوان الانشاء على عهد صلاح الدين . ومن بين شعرائها الصوفيين — المصرى المولد والدار والوفاة ، عمر بن الفارض

---

(٢) أهم ما وصلنا من مؤلفات البغدادى كتابه الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر .

(١١٨١ — ١٢٣٥) الذى وورى التراب فى سفح المقطم ، ومن بعده ظل شعره ولا يزال مرويا يتغنى به محدثو الصوفية ، وتوافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين أمثال : فون هامر النمساوى و نالينو الايطالى،و نيكلسون البريطانى الذى ترجم كثيرا من قصائده إلى الانكليزية .

* وممن كان لهم شأن عظيم من شعراء مصر محمد بن سعيد البوصيرى (ت ١٢٩٦) . وبالرغم من اعتماد شهرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة هى بردة المديح المباركة (١٥٩ بيتا) ، فإنه قد بذ جل أقرانه . وليس يخفى أن البوصيرى كان من تلاميذ أبى العباس فى التصوف .

وقضى عطاء الله الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية (ولد فى مراكش) غالبية حياته فى مصر حيث أدركته المنية (١٢٥٨م) وفى طليعة شعراء الصوفية المصريين أيضا « ابن وفا »[١] الذى استهل حياته فى القاهرة (عام ١٣٥٧ م) . كما يتسنى أن نذكر فى هذا السياق أيضا مؤلفاً صوفيا هو الشعرانى أو الشعراوى الذى ولد فى قلقشنده — قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما إلى قرية أبيه ساقيه أبى شعره من أعمال المنوفية وإليها انتسب(٢) . ومما ينبغى ذكره أن مؤلفاته تربو على الخمسين ، بعضها فى تاريخ حياة طائفة من كبار الصوفية .

* بلغ الصوفية أوج عزهم فى مصر أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوفير من الخانقات . وعلى رأسها الخانكاه الصلاحية التى ،

---

(١) هو العلامة العارف بالله محمد بن أحمد بن محمد بن النجم السكندرى الاصل القاهرى المولد المالكى الشاذلى . ولد تقريبا فى سنة ٧٩ هـ / ١٣٨٨ م بالقاهرة ومات بالروضة ٨٠٢ هـ / ١٤٤٨ م

(٢) هو الامام العلامة عبد الوهاب بن أحمد بن على الانصارى — دخل القاهرة سنة ٩٠١ وتوفى بها سنة ٩٧٣ ودفن بزاويته المعروفة بين السورين(كتاب الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ، وشذرات الذهب ج ٤ ص ٨٠٩) .

فتحها صلاح الدين للفقراء الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد، ورتب الأوقاف للانفاق عليهم . وفضلا عن هذا ، فقد لاح فى سماء الشهرة نفر من كبار كتاب الرسائل ، ونفر غير قليل من الشعراء الذين ما فتأ الناس يعجبون بدواوينهم . ونذكر من بينهم : البهاء زهير المتوفى فى عام ١٢٥٨ والذى نشرت مجموعة من قصائده مع ترجمة لها بقلم هـ . بالمر المستشرق الكبير فى سنة ١٨٧٦(١) .

ونذكر من شعراء مصر سراج الدين الوراق (١٢١٨ — ١٢٩٦) وهو شاعر ملاء شعره كثيرا من الكتب التى تعرض للنماذج الشعرية ، وقد عمل فى الديوان المصرى .

• وفى أيام الأيوبيين برزت كوكبة من الأطباء صنفوا فى علوم الطب مؤلفات شتى . من بين هؤلاء : الطبيب رضى الدين الرحبى (١١٣٩ — ١١٩٣) الذى اتصل بصلاح الدين وعينه طبيبا لمعالجة المرضى فى قلعة الجبل والماريستان الصلاحى وقد ترك مؤلفين فى الطب . ونذكر الطبيب ابراهيم بن الريس أبو المنى وهو ابن الرئيس موسى بن ميمون ، والعلامة جمال الدين أبو الحسن القفطى صاحب كتاب « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ت ١٢٤٨) وابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) — الطبيب الذى درس الطب فى القاهرة وهو صاحب موسوعة عيون الانباء فى طبقات الأطباء وتشتمل على نحو أربعمائة من سير الأطباء العرب واليونان ، والطبيب أبو البيان بن مدور (ت ١١٨٤ / ٨٥) ، وزميله أبو المكارم هبة الله بن حسن جامع الذى اختاره صلاح الدين طبيبا له ، وابن

---

(١) هو الوزير الشاعر الصاحب زهير بن المهلبى المولود بوادى نخلة قرب مكة المكرمة سنة ١١٨٥ هو المتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٦ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الامام الشافعى . واجع ترجمته فى وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٥ ، وفى المنهل الصافى ج ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٨ .

ماريستان مدينة القاهرة و كان يشغل قصراً حسنا ، ثم ذكر عدداً من المدارس التى يغدق عليها السلطان . ومن مفاخر صلاح الدين الأيوبى وآثاره الباقية لمنفعة المسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر وعلى بعد سبعة أميال منها ، وشاهد الأهرام وأبى الهول ، وجامع عمرو بن العاص ، كما تحدث عن الفسطاط والجيزة والروضة التى قال عنها « هى مجتمع اللهو والنزهة وبها مسجد جامع يخطب فيه ويتصل بهذا الجامع — المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة .

والمعروف عن ابن جبير أنه قام برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامى سنة ١١٨٩م استغرقت سنتين وبضعة أشهر وذلك بعد ما سمعه من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (١١٨٧) ثم عاد إلى غرناطة . أما رحلته الثالثة فكانت سنة ١٢١٧ حينما مر بالإسكندرية ثم استقر فيها . وبعد مدة قصيرة توفاه الله فى هذا الثغر وقد جاوز الثانية والسبعين .

أما الرحالة الثالث فهو موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ — ١٢٣١) الذى نهض برحلته فيما بين ١١٩٤ و١٢٠٤ ويعتبر عبد اللطيف طبيبا وعلامة ورحالة . قدم إلى مصر مرتين واشتغل فى المرة الثانية بالتدريس فى الأزهر ، وشاهد الغلاء القاسى والقحط والوباء وجميعها أصابت مصر بين سنتى ١١٩٨ و١٢٠١[1].

كان علامتنا عبد اللطيف يلقى دروسه فى الطب والفلسفة والرياضيات والفلك فى مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة ، وحظى بمقابلة طائفة من مشاهير

---

(١) د. زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ١٠٨ — ١١٢ — دار المعارف ١٩٤٥ ، القاهرة .

القاهرة

فى عصر المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م)

كان من آثار الرخاء التجارى على أيام المماليك وثمرة لتطور مجرى نهر النيل بين الفسطاط وروض الفرج وبعض الحوادث الخارجية شرق مصر أن امتدت رقعة القاهرة من ناحية شمال القاهرة، وكذلك غربها وفى اتجاه الجنوب أيضاً، وتجاوز عمران القاهرة فى شمالها بابى القاهرة - بابى الفتوح والنصر، وقام حى جديد اسمه الحسينية. فلما تغلب التتار على ممالك الشرق والعراق لجأ كثير من الناس إلى مصر، وعمروا الحسينية واتخذ بها الأمراء والمماليك أيضاً مناخات الجمال واسطبلات الخيل ومن ورائها الأسواق والمساكن، وصار أهلها يوصفون بالحسينية لا سيما لما قدمت جماعات الأويراتية Ujur، وهم من المغول الذين خالفوا السلطان غازان عاهل المغول فى إيران ولجأوا إلى مصر فى عصر السلطان زين الدين كتبغا (٦٩٥ هـ - ١٢٩٣ م)، فأنعم على رئيسهم وأمرائهم وأنزلهم بالحسينية.. بيد أنه لما ولى السلطان لاجين حكم مصر قبض على رئيس تلك الجماعات وفرق أفرادها بعد أن سجن زعماءها.

طرح النيل

وفى أوائل حكم المماليك البحرية قرابة عام ١٢٥٢ م طرح النيل أرضاً جديدة حينما تقهقرت مياهه عن ساحله الشرقى، علاوة على الطرح الثالث الذى حدث فى العصر الأيوبى، وبذلك ظهرت أرض جديدة فى المساحة الواقعة بالقرب من

جاردن سيتى (أمام السفارة البريطانية) وعند التقاء شارعى مريت ورمسيس . وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى إلى ناحية الغرب ونتج عن هذا التحول أن أضيفت إلى القاهرة المنطقة التى يمر فيها اليوم شارع محمود بسيونى (الانتكخانة سابقا) وشوارع شامبليون ومنطقة معروف حتى شارع النمر. والجدير بالذكر أنه حدث طرح خامس للنيل عام ١٢٧١ فـكسبت القاهرة أرضا جديدة فيما بين شارع السكر والليمون بمصر القديمة ومجرى قناطر المياه فى فم الخليج حتى مستشفى قصر العينى القديم وامتدادها حتى مبنى جامعة الدول العربية وفندق هيلتون ودار الآثار المصرية ، وحدث بعد ذلك طرحان آخران يعرفان بالطرح السادس (١٢٨١ م) ثم الطرح السابع (١٤٠٣) وكان هذا الأخير عند الحى الذى يعرف اليوم ببولاق .

جزيرة الروضة :

وبالإضافة إلى امتداد مساحة القاهرة كما رأينا فقد نمى العمران فى جزيرتى النيل : الروضة والزمالك . وذلك أنه لما تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ م) ، فسرعان ما عنى ببناء قلعة فيها وأمر أحد أمرائه بإعادة الأحوال فيها إلى ما كانت عليه فى أيام الصالح نجم الدين الأيوبى . فأصلح بعض ما تهدم فيها ووزع أبراجها على الأمراء ومنح برج الزاوية للأمير سيف الدين منصور قلاوون الألفى ، ووزع بقية الأبراج على كثير من الأمراء المقربين ، ولذلك عرفت أسرة المماليك البحرية بالمماليك البرجية ، وأمر بأن لايغادروها ومن هنا اجتذبت الروضة إليها نفراً من الأهالى والباعة وأخذوا يسكنونها . بيد أن قلاوون بعد ما تولى السلطنة وعزم على بناء البيمارستان والقبة والمدرسة فى النحاسين ، نقل من قلعة الروضة جميع ما احتاج اليه من العمد والرخام . وكذلك فعل ابنه الناصر محمد حينما شيد مسجده ودار العدل بالقلعة .

جزيرة الزمالك

وفى أيام المماليك البحرية انحسر الماء عن جزيرة النيل الوسطى وهى جزيرة أروى التى ذكرها المقريزى (جـ ٢ ص١٨٦) بأنها تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة . وكان انحسار الماء عن الجزيرة حول عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ – ١٣٠١ م) ، فشيد الناس فيها الدور والأسواق والجوامع والطواحين ، وغرسوا فيها البساتين وحفروا فيها الآبار ، وصارت من متنزهات القاهرة ، يحف بها الماء من جميع جهاتها . وجزيرة الزمالك تعرف بالجزيرة اليوم ، من أحسن المواقع للسكنى والتنزه فى القاهرة وبها نوادى الرياضة والمستشفيات والفنادق ودور السفارات .

يتبين لنا مما سبق كيف اتسعت القاهرة من أواخر أيام الفاطميين إلى انتهاء أيام دولة المماليك (١٥١٧) . ويمكن القول بأنها حافظت على اتساعها وامتدادها على أيام العثمانيين باستثناء زيادة صغيرة كسبتها المدينة بجوار بولاق حول عام ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) نتيجة للطرح السابع . وفى تلك الأرض أنشأ السلطان على بك الكبير عمارة كبيرة على ساحل النيل فى ذلك الوقت حيث يمر شارع المطبعة الأميرية وذلك بسبب ما كان يلقى من الأتربة وبقايا العمارات بجوار الساحل القديم ، فطمى النيل عليها ، وبذلك تكونت الأراضى التى قامت عليها دار المطبعة الأميرية والورش الحكومية ومصلحة الوابورات (الترسانة) .

وينبغى أن نشير إلى نقطة أخرى وهى أن أكثر ما اشتملت عليه العمائر فى القاهرة التى تمتاز بحسنها الفريد ، يرجع إلى السلاطين المماليك ومع ذلك فلم يحفظ لنا الزمن شيئاً من قصورهم الفاخرة سوى بعض ما تخلف من بعض المداخل أو الشرفات . ونستطيع اليوم أن نتخيل ولو قليلا ، ما كانت عليه العمائر المملوكية

من جمال رائع ، حينما نطالع ما كتبه عنها الرحالة من خلال وصفهم لها وحينما نقرأ الفصول الطريفة التي دونها العلامة المقريزي في موسوعته الفاخرة عن خطط القاهرة حتى القرن الخامس عشر .

وفي ظل أيام المماليك الشجعان كانت القاهره في خلال أكثر من قرنين ونصف قرن أغنى وأجمل وأفخر مدن العالم الإسلامي مكانة . يشهد بذلك مساجدها ومدارسها وخاناتها وحماماتها التي تعبر عن حسن ذوق حكامها ومدى حبهم لفعل الخير . . ان لكل قـــرن من القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر أعمالا رائعة ، لكل منها خصائصها المعمارية التي تمتاز بها . . من أيام السلطان قلاوون الذي شاهد عصره خاتمـــة الصليبيين إلى السلطان قايتباى (١٤٩٤) والسلطان قانصوه الغوري (ت ١٥١٧) الذي عاصر الخطر العثماني يهدد مصر في الوقت الذي كان يستعد لمواجهة خصمه ، ويشيد عمائره الجليلة التي ما زالت قائمة .

ونخص بالذكر عملا رائعا وممتازا لأنه فريد وليس له مثيل ، بالإضافة إلى عمائر أسرة قلاوون العتيدة . . ألا وهو المدرسة — المسجد الذي بناه السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤٥ - ١٣٥٩) — فكل بقعة في المسجد يترك أثرا في النفس لضخامته ، دع عنك الجزئيات . . . فالمدخل الشاهق يعلو مع ارتفاع المسجد جميعه . . وهذا الصحن الداخلي يحيط به أربعة ايوانات رائعة، وكان المسجد جميعه محلى باطرف وأرق ماصنعه الإنسان من النحاس والزجاج المطلى بالمينا مما لا يزال يشاهد بعضه في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

لنتخيل شارعا رئيسيا في القاهرة في أيام المماليك - تلك الشوارع المكتظة بالحركة أثنــاء النهار والليل يتدافع فيه جمهور من جنسيات متنوعة ولنأخذ الشارع

الأعظم الذى يشق القاهرة باب الفتوح إلى باب زويلة ثم يمتد إلى شارع المغربلين فالصليبة إلى حى بن طولون .. ونتجه منه إلى ضريح السيدة نفيسة .. ولا شك أنه بمثابة العمود الفقرى للقاهرة وتمتد على جانبيه بوابات شاهقة وحوانيت صغيرة تكشف عن محتوياتها .. والشارع يسوده الاضطراب ، فالبيوت تبدو وكأنها أقيمت دون نظام وبالرغم من أن الشارع مستقيم فى اتجاهه العام، إلا أنه ينحنى بطريقة لا تلحظ ، ونظرا لكثرة المساجد فى هذا الطريق الهام ، فهناك دائما مأذنة على مرمى البصر، وقال أحد الرحالة الأوربيين ،أنه لو جمعت مساجد القاهرة فى مكان واحد ، لكونت مدينة فى حجم مدينة أورليان(١) وقد وجد الأوروبيون الذين حيرتهم شدة ازدحام السكان ، أنه من المستحيل الحصول على تفصيلات دقيقة ، فكتب أحدهم فى سنة ١٣٢٢م : فى اعتقادى ، طالما ليس هناك تقدير أصح — أن القاهرة تبلغ ضعف حجم باريس وأربعة أضعاف عدد سكانها ، وحتى إذا اقترحت عددا أكبر ، فهو أقل من الحقيقة

ابن بطوطة ومجتمع القاهرة

• ولدينا صورة واضحة للمجتمع القاهرى فيما دونه رحالتنا المغربى محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة الذى جاب العالم عدة مرات وزار مصر وأقام بالاسكندرية والقاهرة وكان ذلك فى عام ١٣٢٦ م . قال ابن بطوطة الذى عرف بطرافة الملاحظة عن القاهرة ما يأتى :(٢)

••• ثم وصلت إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد،وقرارة فرعون ذات الأوتاد

(١) جاستون فييت وترجمة الدكتور مصطفى العبادى : القاهرة مدينة الفن والتجارة ص ١١٧ — ١٢٥ ، بيروت. Garston Wiet, Cairo City of Art and Commerce.

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٣٦.

ذات الأقاليم العريضة المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم ـ وجاهل، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها .

الرحالة البلوى وماريستان القاهرة

• وبعد سنوات قلائل زار القاهرة خالد بن عيسى البلوى فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان من كبار القضاة بالأندلس ، وصف رحلته باسم « تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق » (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م) قال البلوى(١) « أخبرنى الامام شمس الدين السكركى . . قال :أحصيت الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء فى كل يوم فبلغت مائتى ألف جمل ،ماعدا البغال، وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ماعدا السقائين الذين بالاكواز والاكواب فى الأسواق والطرق. . ولو لم يكن فى القاهرة ما تذكر به إلاالمارستان وحده ما كفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا وجمالا واتساعا ، لم يعهد مثله فى قطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع انشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن والجمال. . وقد وصف البلوى مشاهد القاهرة ومسجد السيدة رقية ومقبرة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسود أسماء بعض العلماء الذين قابلهم أو قرأ عليهم.

لم يكن يذهب أحد للسير فى الشوارع الرئيسية بقصد النزهة وإنما يذهب إليها الناس لقضاء حاجاتهم ، ولا يستطيع واحد أن يسير دون أن يتدافعه ذلك الجمهور المزدحم الصاخب . . أما الشوارع الصغيرة الضيقة فقد أوجز لنا سيمون سيمونيس (الذى كتب وصفا لما شاهده سنة١٣٢٢)، ويقول : نجد فى شوارع المدينة المظلمة

---

(١) خير الدين الزركلى : الأعلام ، جـ ٢ ص ٣٣٩ .

الملتوية كثيراً من الأركان والمنحنيات ، وهى مليئة بالغبار وغيره من القمامة وغير مرصوفة وتزدحم شوارعها العامة بجمهور صاخب ولا ينتقل الإنسان من شارع إلى آخر إلا بمشقة كبيرة .

ثم يحدثنا المؤرخ ابن أياس(١) المصرى أنه فى مايو سنة ١٤٧٧ ، صدر أمر بتوسيع طرقات القاهرة وأزقتها وصدر أمر بهدم جميع المبانى التى أقيمت دون طريق شرعية فى الأسواق والشوارع ، مثل كثير من المبانى التى كانت تدر دخلا ، والسقائف والمصاطب ، وكانت عملية توسيع الطرقات ذات نفع للمدينة ولكن كثيرين من الأفراد تحملوا خسائر جسيمة لإزالة حوانيتهم وممتلكاتهم ، لاسيما تلك التى كانت تقع عند الطرق الرئيسية ، ومع ذلك فقد نفذت الحكومة غايتها ، كما أصلحت أبواب المساجد ، وقامت بتنظيف رخامها وتبييض جدرانها ، وأعادت تجميل وجوه الرباع المطلة على الطرق . . فاستعادت المدينة جمالها السابق وغدت رائعة . . وكان ذلك فى نهاية القرن الخامس عشر .

ابن خلدون وحضارة القاهرة

وكتب ابن خلدون(٢) الفيلسوف العربى الذى وفد على مصر وقضى بها بقية حياته واستكمل فيها مؤلفاته (١٣٨٢ — ١٤٠٦) وصف القاهرة فى عبارة شاملة بقوله : « من لم ير القاهرة لم يعرف عز الإسلام فهى حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام وكرسى الملك ،

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٢ ص ١٧٦ ١٧٧

(٢) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا — تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥١ .

تلوح القصور والأواوين فى وجوهه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه وأسواقها تزخر بالنعم . . . » .

وتناول فيلسوفنا العظيم فى مقدمته المشهورة — أحوال العلم والعلماء فى القاهرة فقال : . . . ونحن نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر كما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعلم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين أيوب وهلم جرا ، واستكثر أمراء الترك من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاء لولدهم ينظر عليها أو نصيب نها مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير . .

فكثرت الأوقاف لذلك وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم ، وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها ، والله يخلق ما يشاء(١) ويواصل ابن خلدون كلامه حتى يقول :

لما درست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتاب بل والعلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه . بها نافعة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفه بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربه وكتابة وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون . . لقد بلغت الحضارة

---

(١) كأن ابن خلدون يصف قاهرة اليوم .

فبلغا عظيما فى العراق والشام ومصر لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ إذا رسخ فى الثوب .

وفى أواخر القرن الخامس عشر ، وبالتحديد فى المدة بين نوفمبر سنة١٤٩٦ وأكتوبر ١٤٩٨ وفد على القاهرة الفارس الألمانى أرنولد فون هارف Arnold von Harf الرحالة وهو فى طريقه إلى بيت المقدس ، وفى أثناء ذلك تعرف الفارس على شخصين ألمانيين ، ساعداه كثيرا فى جولاته بالقاهرة واستطاع فون هارف أن يحصل على إذن من سلطان مصر الناصر محمد بن قايتباى (١٤٩٦ - ١٤٩٨) ليسافر من مصر إلى فلسطين والشام وغيرها من البلاد التى كانت تابعة لمصر واهتم السلطان بأمره ودعاه للتحدث إليه بالقلعة . ولذلك نقرأ له فى كتاب رحلته ما شاهده فيها من القصور والدور ومدرسة المماليك وكان بها خمسمائة مملوك من الفتية يتدربون على الفروسية ويتعلمون القراءة والكتابة . وتحدث لنا الفارس عن بعض شوارع القاهرة الرئيسية ، وقال إن عددها ٢٤ شارعا . أما الطرق الأخرى الصغيرة فتعد بالآلاف ، وقال إنه شاهد فى كل شارع طباخ ومخبزان أو أكثر حسب امتداد الشارع ، ولاحظ أن معظم الناس لا يطبخون الطعام فى بيوتهم . بل يحصلون عليه جاهزا من المطابخ العامة ، ويباع الدجاج المسلوق أو المحمر بكثرة فى الطرقات ، كما ان الناس يأكلون الكثير من لحم الضأن والجمل وذكر الفارس أن بالقاهرة حمامات للرجال وللنساء كما تحدث عن المساجد والكنائس والمدارس والأهرام وأضرحة السلاطين ، والأسواق وتقاليد المجتمع فى الحدائق والمواسم والأعياد .

وفى عام ١٥٠٢ زار القاهرة رحالة أوربى غير معروف لنا تماما ، اسمه لودوفيكو دى فرثيا (Ludovico di Varthema) خابت ظنونه عن المدينة ، فقد كان يظنها أكبر بكثير مما وجدها عليه ، فيقول إن محيطها لا يزيد عن محيط روما بالرغم عن أن سكان القاهرة أكثر بكثير(١) .

ومنذ ذلك الحين لا يقابلنا فى القاهرة واحداً من الرحالة المشهورين حتى عام ١٥١٧ وكان قد تم للعثمانيين فتح مصر ، فكان أول القادمين الرحالة الحسن بن محمد الوزان المشهور باسم ليون الأفريقى Lion Africans ، وسنقرأ ما كتبه عن القاهرة حينما نتحدث عن القاهرة العثمانية .

المنشآت الدينية فى القاهرة

ونتحدث الآن عما احتوته القاهرة عامة من المنشآت الدينية والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف السلع والأسواق المكدسة بما تشتهى الأنفس والخانات المشحونة بالقادمين والفنادق المختلطة بالرحالة والتجار والمغامرين مما لا يمكن حصره ، بل يمكن وصفه بأنه مجموعة من متاحف العمارة والأنثروبولوجى والفنون التشكيلية الجذابة .

وقد ذكر لنا الطبيب عبد اللطيف البغدادى (القرن الثانى عشر) وصفا شائقا عن حمامات القاهرة تناولنا نبذة منه والواقع أنه أكد بأنه لم يشاهد فى البلاد الأخرى التى زارها أتقن منها ولا أحسن منظراً ومخبرا .

---

(١) بعد إتمامه رحلة القاهرة قصد لودفيكو الجزيرة العربية ووصف رحلته فى كتابه
Itinerario L. de Varthema ne le Egypto, no le ...

وأما الزوايا الكثيرة وتسمى بالقاهرة « الخوانق » جمع (خانقاه) فكان الأمراء يتنافسون فى بنائها وكل خانقاه معينة لطائفة من الفقراء وهم أهل أدب ومعرفة بالتصوف ولكل خانقاه شيخ وحارس وكان يقدم الطعام بالمجان كالسكن لمن يأوون إليها ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين ولهم الحلوى من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة(١) .

الاسبلة

ومنذ القرن الرابع عشر عنى ببناء الأسبلة التى تمد المارة بماء الشرب وماء الوضوء ، وكان يقوم على تزويدها سقاءون ، ومما قاله واحد من الرحالة الأوربيين فى نهاية القرن الرابع عشر : « إن كثرة الأسبلة الموجودة فى المدينة لدليل على رقيها » .

وفى القرن الخامس عشر ، لم يبق فى القاهرة متسع كاف من الأرض الفضاء سوى القليل ، ومن هنا كان من الضرورى أن يصغر حجم المساجد والمبانى العامة التى شيدت عن سابقاتها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — على سبيل المثال ، كما أزيل منها الفضاء المكشوف الأوسط . أما المدارس فقد تناثرت فى أنحاء المدينة بشكل يدعو إلى الدهشة .

راى للمقريزى

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ المقريزى الذى يتبوأ ثبت المؤلفين عن القاهرة

---

(١) جاستون فييت . القاهرة مدينة الفن والتجارة ترجمة وتحقيق م. العبادى س١٩٥ /١٩٩ .

فى العصور الوسطى ، قسم سكان مصر إلى فئات سبع ، تشتمل على[1] .

١ — رجال الدولة وجندها وهم المماليك سادة الطبقة الممتازة .

٢ — أثرياء التجار ممن سعد حظهم .

٣ — الباعة مثل تجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت فى الأسواق (صغار الطبقة المتوسطة) .

٤ - أهل الفلاحة والزرع (أهل القرى والريف) .

٥ — رجال الدين والمعلمين وطلاب العلم وفيهم القضاة .

٦ — كتاب المملكة ورجال الشرطة .

٧ أصحاب الحرف والصناعات والعمال والفلاحين والنساجين والبنائين وغيرهم من فئات العمل المختلفين ، ويتبعهم فقراء الشحاذين والبؤساء من الطبقة الدنيا بالمجتمع .

تطور اخطاط القاهرة

واشتملت القاهرة على أحياء كثيرة (أخطاطا) يفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التى كانت توصد على سكان الحى بعد غروب الشمس وأهم تلك الاخطاط كما ذكرها المقريزى . خط خان الوراقة ، وخط باب القنطرة ، وخط بين السورين ، وخط الكافور ، وخط الخرنفش ، وخط بين القصرين الذى كان من أعمر أخطاط القاهرة ، وخط الخشيبة ، وخط البندقانيين ،وخط دار الديباج، وكان فيها دار الوزير الفاطمى يعقوب بن، كلس ، تلك التى عملت دار

---

(١) الخطط ج ٢ ، ص ٩٢ .

ينسج فيها الديباج والحرير للخلفاء الفاطميين . وقد وصف المقريزى فى موسوعته ٣٧ حياً أو حارة وثلاثين خطاً و ٦٥ شارعا أو دربا و ٢١ زقاقا وخوخة و ٤٩ رحبة (ميدان) ، و ٥٠ سوقاً و ٢٣ قيسارية و ١١ خانا أو فندقا أو وكالة و ١١ ميدانا للسباق و ٥٥ قصراً ودارا و ٤٤ حماما و ١٨ بستانا وغيرها . ومن أهم الرحاب : رحبة باب العيد ورحبة قصر الشوك ، ورحبة الأزهر ورحبة باب اللوق والناصرية . وكثرت عدد القناطر عبر خليج القاهرة الذى امتد من جنوب المدينة إلى شمالها الشرقى .

ومن أهمها قنطرة السد ، وعمر شاه ، وقنطره الفخر ، وقنطرة المقسى .

أسواق القاهرة وأضرحتها

يذكر المقريزى كثيراً من الأسواق المسقوفة وكان يوجد فيها فى وقت ما اثنتين وثلاثين ، لم يبق منها اليوم سوى واحدة صغيرة وقد اختصت هذه الأسواق ببيع جميع أنواع المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية والكتانية ، ولا زال اسما سوق العنبر وسوق العصفر يدلان على نوع سلعهما . ومن الأسواق الأخرى ما ضمت صناع الأخفاف والجلود والسلاح وأدوات الخيل ، وذكر المقريزى أيضا أنه كان بالقاهرة فى منتصف القرن الخامس عشر تسعة عشر فندقا تستقبل التجار الوافدين من الشرق والغرب .

المقابر « القرافات »

لم يبق إلا أن نتحدث عن مدافن القاهرة فى عصورها الوسيطة ، فقد كان يقع معظمها فى شرقيها وجنوبها . تحدث ابن بطوطة عنها فى رحلته فقال : «وهم (القاهريون) يبنون فى القاهرة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون

كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء ليلا ونهاراً ، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إليها المبيت فيها مع أولادهم ونسائهم .

وقد وصف القرافات القاهرية كثير من الرحالين الأوربيين ، منهم بيلوتى Emmanuel Poiloti (١٤٢٠)، وبريدنباخ Brydenbach (١٤٨٣) .

وهناك تقع فى شمال شرق القاهرة مجموعة رائعة من أضرحة Mausoleum سلاطين المماليك وأمرائهم وقبورهم وبعض مدارسهم ، تتنافس كل واحدة منها مع الأخرى فى جمال قبابها وسمو مآذنها وفخامة عمارتها ، وجميعها تتألف فيها نماذج للعمائر الإسلامية نادرة المثال وأهمها مجموعة السلطان فرج بن برقوق والسلطان اينال والأمير أرقس ، وضريح السلطان الأشرف قايتباى العظيم .

مجتمع العلماء فى قاهرة المماليك

لا تتمثل حضارة مصر المملوكية بتلك العمائر الخالدة المرصعة بشتى الفنون والتى تتناثر فى القاهرة حتى اليوم ، من المساجد والمدارس والخانقات والوكالات والحمامات والأسبلة وغيرها ، بل تتمثل أيضا فيما خلفه علماء وأدباء ومؤرخو تلك الفترة الزاهرة من التراث الفكرى فى الأبحاث والمؤلفات فى شتى ألوان العلوم والفنون . فنى الطب ، يقابلنا العالم الجليل على بن أبى الحزم المشهور بابن النفيس (١٢١٠ — ١٢٨٨ م) والذى لمع اسمه فى ماريستان المنصور قلاوون بالقاهرة ، وألف فى الطب ، مالا يقل عن أربعة عشر كتابا ، من أهمها « كتاب الشامل فى الطب » وهو موسوعة ضخمة تضاهى كتاب الحاوى لتاج الأطباء الرازى . وقد اهتدى هذا الطبيب المصرى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى —

دورة الدم من البطين الأيمن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر قبل أن يكشفها الأوربيان ميشيل سرفتس (١٥١١—١٥٥٣) ، وريالدو كولومبد سنة ١٥٥٩ ، فسبقهما إلى ذلك بقرابة ثلاثة قرون .

• ومن ألمع أطباء العيون فى أيام المماليك البحرية صدقة بن إبراهيم المصرى الذى عاش فى مصر خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر وألف كتابا وافيا عن مرض الرمد عنوانه : كتاب العمدة الكحلية فى الأمراض البصرية وقد اتبع فيه منهجا علميا مازال اليوم يتبعه الأطباء المحدثون .

• وفى هذا العصر لمع شهاب الدين أبو العباس أحمد . ولد بالبهنسا بالقرب من بنى مزار ومات بالقرب من المعادى حوالى عام ١٢٨٥م اشتهر برسالته العلمية « كتاب الاستبصار فيما تدركه الأبصار » التى كتبها تلبية لرغبة السلطان الكامل ليبعث بها إلى الامبراطور فردريك قبل عام ١٢٣٩ وقد تحدث فيها عن قوس القزح ، وكانت أولى الرسائل التى ألفت فى هذا الموضوع الفيزيقى الهام(١)

• ونذكر أيضا من أطباء مصر المملوكية : أمين الدولة يعقوب بن اسحق بن القف (ت حوالى ١٢٨٦) ، والطبيب سعيد بن منصور بن سعد المشهور باسم ابن كمونه الاسرائيلى ، وهو فيلسوف وطبيب وكيميائى ، اعتنق الإسلام وألف رسائل فى الحكمة ، كما كتب رسالة قابل فيها بين الإسلام واليهودية والنصرانية ، وجعل عنوانها « تنقيح الأبحاث فى البحث عن الملل الثلاث » ، ولمع أيضا شهاب الدين أحمد بن المغربى رئيس الأطباء فى مصر والشام ،

---

(١) Aydin, m. Sayili : al Qarafi and his explanation of the Rainbow. Izis 32, p. 16 - 26.

أنظر أيضا Sarton, G : Introduction to the History of Science; vol II, Part II, 1. 1099.

قدم مصر واستوطنها وباشر فحص للرضى وأحسن العلاج وهو والد الطبيب جمال الدين ابراهيم رئيس الأطباء عند الملك الناصر محمد بن قلاوون . ونذكر أيضا محمد بن ابراهيم المعروف بابن الدهان الجرائحي ألمع أطباء العصر المملوكي ، وقد مهر طبيبا وفيلسوفا وتحدث فى الكيمياء وصحح أقوال بعض المتقدمين في كثير من مسائلها وتوفاه الله عام ١٣٤٢ م :

• ونبغ طبيب العيون وعالم الأحجار الكريمة شمس الدين بن محمد الشهير بابن الأكفانى ويعتبره كثيرون خاتمة أطباء العيون الحاذقين فى عصر المماليك وقد توفاه الله عام ١٣٤٨ م . عمل طبيبا ومشيرا لناظر بيمارستان قلاوون وقد ألف ابن الأكفانى كتبا شتى ، منها : إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد و « غنية اللبيب عند غيبة الطبيب » و « نخب الدخائر فى معرفة أحوال الجواهر إلخ . . » . والطبيب محمد بن اسماعيل أبو الوفا الذى نشأ بالقاهرة وصار من ذوى السمعة فى ماريستان قلاوون وقد توفى عام ١٤٢٧، والطبيب سراج الدين عمر بن منصور البهادرى (١٣٦٠ — ١٤٣١) الذى زاول الطب فى ماريستان قلاوون وجامع ابن طولون . وكان من أبرز تلاميذه طبيب العيون تاج الدين عبد الوهاب بن شمس الدين الشناوى (١٣٦٤ — ١٤٤٧) .

• ومارستان المنصور قلاوون من أعظم منشئات السلطان المنصور قلاوون حيث كان يعمل أبرع الأطباء الذين عرفتهم مصر المملوكية . وبسدىء فى بنائه فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وتم انشاؤه فى قرابة ثمانية أشهر وبعد الانتهاء من بنائه قال السلطان قلاوون :

« إنى بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى وللفقير ، وللحر والعبد ، للذكور والإناث » . وحينما زار الرحالة ابن بطوطة مصر فى عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٧) ، شاهد المارستان ، وذكر

عنه : ... « أما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن ذكر محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصى » .

• وفى العصر المملوكى ، نبغت طائفة من علماء الفلك ، منهم أبو زكريا يحيى المعروف بابن اللبودى (ت بعد ١٢٦٧ م) وكان رياضيا وحسابا ، والفلكى أبو عبدالله محمد بن أحمد المزى (ت ١٣٤٩) وقد صنع عدة اسطرولابات ، منها واحدة فى مكتبة ليننجراد ، كما أنه ألف عدة رسائل . ويقابلنا بعده الفلكى شهاب الدين أبو العباس أحمد ، وقد ذكر له العلامة الألمانى بروكلمان Brockelmann ستة وعشرين كتابا ورسالة ، ومن المحتمل أن بعضها ذكر مكرراً . ومن علماء الرياضيات تقى الدين الحنبلى بن عز الدين الذى عاش حوالى ١٣٠٩ . وقد كتب رسالتين فى الحساب ومخطوطة إحداها فى دار الكتب الوطنية فى باريس ورقمها ٢٤٦٩ وتاريخها ١٤٠٩/١٠ ، ومعاصره عالم الحساب ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الهائم (١٣٥٢ — ١٤١٢) وله رسائل كثيرة.

وفى منتصف القرن التاسع عشر ، أثبتت بحوث العالمين رينو وفافية (Renaud and Fave) وغيرها أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدفع السهل الانفجار الدافع للقذائف ، وكان من رأى هذين العالمين من قبل أن اختراع البارود يعود إلى أهل الصين . بيد أنهما بعد اطلاعهما على مخطوط نجم الدين حسن الرماح المصرى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، وعنوانه كتاب الفروسية والمناصب الحربية،وتوجد مخطوطة بنسختيها بدار الكتب الوطنية فى باريس ، أثبتا أن كشف البارود واستخدامه يعود دون شك إلى نجم الدين حسن الرماح المصرى الشامى . والمعروف أن عالم النبات ابن البيطار (١٢٤٨) مؤلف كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » كان أول عربى

ذكر فى كتابه كلمة « بارود » مرتين . والجدير بالذكر أن النص الكيميائى لتكوين البارود كما ورد فى مخطوط حسن الرماح وصف الذخيرة التى تدك فى المدفع (١) وبيان نسبتها : عشرة دراهم من البارود ، ودرهمان من الفحم (Charcool) ودرهم ونصف درهم من الكبريت .

علماء فى علوم الحضارة

• يقابلنا العالم اللغوى عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (١١٧٥–١٢٤٨) ونقدمه دليلا على ما أسهم به علماء مصر فى اللغة العربية . ألف « الكافى » فى قواعد اللغة وكان مرجعا هاما للطلاب والمتعلمين فى المدارس .

• وكان العلامة عبد الله يوسف بن هشام النحوى (١٣٠٨ — ١٣٦٠) وأستاذ دراسات القرآن فى القاهرة من علماء اللغة ، كما اشتهر فى هذا الحقل العلامة محمد بن أبى بكر الدماميني (١٣٦١ — ١٤٢٤) المولود بالاسكندرية والمتوفى بالهند .

• ونلقى جلال الدين السيوطى - وهو من أهالى أسيوط فى مصر العليا ، علما من أعلام الفكر تولى عدة وظائف عامة فى القاهرة ، ثم ركن إلى جزيرة الروضة متقاعدا عن العمل حينما أعفى من الوظائف التى كان يتولاها . وعاش السيوطى ستين سنة بين عامى ١٤٤٥ — ١٥٠٥ م . ومن الصعب أن نجد علما من علوم المسلمين لم يجر فيه قلم السيوطى بالتأليف والتصحيح والايضاح . وقد ذكر « بروكيلمان » المستشرق الألمانى ثلاثمائه وثلاثة وثلاثين مؤلفا للسيوطى . وقد يكون هذا الثبت الذى أتى عليه بروكيلمان يفتقر إلى الدقة .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب (Justav Le Bon) ط . الرابعة ص ٤٨١ .

بيد أن الشيء الذى لامرية فيه هو أنه لايوجد مؤلف آخر فى العربية له ماللسيوطى من مؤلفات وأبحاث .

على أننا فى مثل هذا الكتاب ، لا يتسنى لنا أن نقف ازاء كل من تصدر من المصريين فى علوم اللغة والشعر أو الطب والكيمياء أو الهندسة والفلك ، لنتحدث عن تاريخ حياته ومؤلفاته . فلهذه الميادين مراجعها المستفيضة ، ولكن لا ندع هذا العرض دون أن نذكر فى إلمامة سريعة ألمع الأسماء ، ولعله يتيسر منها أن ندرك صورة صحيحة للحياة الفكرية والعلمية فى مصر أثناء حكم المماليك نظراً لأهمية الدور الذى لعبته البلاد فى بناء حضارة الإسلام .

• ها هو ذا العالم العلامة محمد بن موسى بن كمال الدين الدميرى الأصل القاهرى الشافعى — المولود حوالى سنة ٧٤٢ هـ — ١٣٤٤ م بالقاهرة (توفى سنة ٨٠٨ — ١٤٠٥ م) مؤلف الموسوعة العربية الكبرى فى علم الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) ، والكيميائى الجلداكى — مثله مثل الدميرى — قاهرى اشتهر بدراساته فى علم الكيمياء (توفى عام ١٣٦١) والنواحى (ت ١٤٥٥) صاحب مؤلف فى التحاليل الطبية ، وابن سيد الناس (ت ١٣٥٤) واشتهر بسفره فى حياة النبى وتاج الدين السبكى (ت ١٣٥٥) الذى عاصر اثنى عشر من السلاطين المماليك . وهو مصلح مصرى لمس نواحى الضعف فى الحكومة وفى طبقات الأمة لذلك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الاعجاب ، ثم وصف وسائل الاصلاح .

وبرز من رجال الشريعة على المذهب الحنفى ابن نجيم المصرى (ت ١٧٦٣) والدمرطاشى (ت ١٧٩٧) — ومن الشافعية البلقينى (ت ١٤٠٣) وزكريا الأنصارى (ت ١٧٦٣) والدمرطاشى (ت ١٦٧٩) الذى اشتهر فوق دراية بالشريعة بعلوم اللغة والشعر .

وقد لعبت مصر دورا هاما فى تاريخ ناحية من الأدب العربى من المتعذر أن يفكر فيها أديب عربى . وينوه بها كتاب الغرب فى مقدمة مؤلفاتهم فى الأدب العربى . هذه الناحية هى الأدب القصصى الخيالى . وأظهر ما كتب فيه هو كتاب « ألف ليلة وليلة » ، كما توجد مجموعة طيبة أخرى من هذا القصص الروائى لها قيمتها التأليفية . وعلة تقديم كتاب ألف ليلة وليلة عليها هى أن المستشرقين فى بلاد الغرب لم يعنوا إلا بترجمة ألف ليلة، فقد كان فى وسعهم بسبب احتوائه على مجموعة من القصص أن يترجموا أجزاء منها تعتبر فى حد ذاتها كتابا كاملا — وأشهر هذه القصص : عنترة العبسى — أبو زيد الهلالى — الظاهر بيبرس — وغيرها .

وكان فن القصص فى فترة ما ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر . كما يبدو أن الراوية أو القصاص الذى يسامر الناس فى المقاهى قاصا عليهم تاريخ حياة عنترة أو أبى زيد لم يعد له وجود فى المدن الكبرى . بيد أن الشىء الذى لا مراء فيه أنه كان لهذا أثره فى خلق جو من كتاب القصة المصرية الصميمة تتبدى بوادرها فى صورة طيبة الآن. نذكر منهم توفيق الحكيم ومحمود تيمور والسحار وباكثير ويوسف السباعى ونجيب محفوظ .

كانت مصر والشام مهد المعلمات والمجاميع الإسلامية . فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة ، كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين فى عصر اتحاد البلدين ، فالنويرى (١٢٨٠ — ١٣٣٢) صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » كان من رجال السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ، وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » تولى القضاء بمصر فى عصر المماليك (١٣٠١ - ١٣٤٨م) وقد كان معاصرا للنويرى وكتابه فى التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة إلى أناقة فى التعبير وجمال فى الأداء يفوق النويرى. وهو يقع فى أكثر من عشرين

جزءا، ثم أبو العباس أحمد القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » كان أيضا من الموظفين المصريين فى ذلك العصر (ت ١٤١٨) .

• ويقابلنا فى حقل كتابة التاريخ المؤرخ الكبير صارم الدين ابراهيم بن محمد ابن أيدمر العلائى المعروف بابن دقاق صاحب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصل لينا أيضا كتاب « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » وجزء من مؤلف آخر هو « نزهة الآنام فى تاريخ الإسلام » والمؤرخ شهاب الدين الأوحدى (١٣٦٠ — ١٤٠٨ م) وابن الداية وابن أبى أصيبعة وابن الراهب القبطى وأبا شامة وابن واصل وابن شداد . . .

• كما وصل ألينا كتاب قوانين الدواوين، وهو مؤلف يصور قوانين وأوامر الدولة المصرية على عهد حكم صلاح الدين الأيوبى . ومؤلفه الأسعد بن مماتى (١) وممن ولدوا فى القاهرة أيضا ابن الفرات مؤلف كتات «تاريخ الدول والملوك» ولد عام ١٣٣٤ وقد أراد أن يضمن كتابه التاريخ الإسلامى فبدأ من القرن الرابع عشر للميلاد راجعا الوراء، بيد أنه وصل إلى القرن العاشر فحسب عندما وافاه أجله فى عام ١٤٠٦(٢) .

• وإذ ذكرنا هؤلاء، فيتعين أن نثبت بحق ألمع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التى كتبوها فى القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) وهى

---

(١) هو أبو المكارم أسعد بن المهذب المصرى القبطى الأصيل ناظر دواوين مصر المتوافى بحلب سنة (٦٠٦ هـ ١٩٠٢ م) عن اثنتين وستين سنة . راجع ترجمته فى المقريزى ج ٢ ص ١٦٠ — وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية الملكية بإشارة صاحب السمو الأمير عمر طوسون ـ وراجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ـ عام ١٩٤٣ .

(٢) لا يزال كتابه ابن الفرات مخطوطاً فى دار الكتب المصرية (رقم ٣١٩٧) أنظر ترجمته فى الضوء اللامع ج ٨ ص ٥١ .

تعد مكتبة مجيدة فى التراث المصرى الإسلامى . ويعتبر أحمد بن على المقريزى ألمع جماعته . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع الفريد لدراسة مصر الإسلامية لجميع الباحثين ، ومن أهم أسفاره :

عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط — اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا — السلوك لمعرفة دول الملوك — المقفى الكبير — العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم — إغاثة الأمة بكشف الغمة . وقد حمل الدكتور مصطفى زيادة ومن بعده تلامذته فى تحقيق كتاب السلوك حتى أنجزوا عملهم المشرف .

وقد صمم المقريزى مشروع دائرة معارف من ثمانين مجلد ليسجل فيها حياة أعلام المصريين ، بيد أنه لم يكمل منها إلا ستة عشر جزءا فحسب . كما أنه لم يكمل أيضا مؤلفا آخر هو كتابه (دور العقود) . وفضلا عن هذا كله فللمقريزى بضعة بحوث فى علم الحديث(١) .

. ومن مؤرخى مصر المعاصرين للمقريزى — أحمد بن حجر الذى مؤلفنا من مؤلفاته : فتح البارى فى شرح البخارى ـ الجمع المؤسس والمعجم المفهرس،

(١) ولد المقريزى بالقاهرة سنة (٧٦٠ هـ ـ ١٣٦٤م) بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالى وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ثم التحق بديوان الانشاء بالقلعة حيث ظل يعمل موقعا حتى سنة١٣٩٨ عند ما اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين وفى سنة ١٤٠٨ انتقل الى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير ولتولى التدريس أيضا ، ورحل الى عدة بلدان وتوفى عام ٨٤٥هـ — ١٤٤٢م) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ج ١ص ٥٣٢ وفى المنهل الصافى ج ١ ص ٢٢٣، وفى «المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، للدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٣ — ١٧ .

منظر عام : جامع أحمد بن طولون
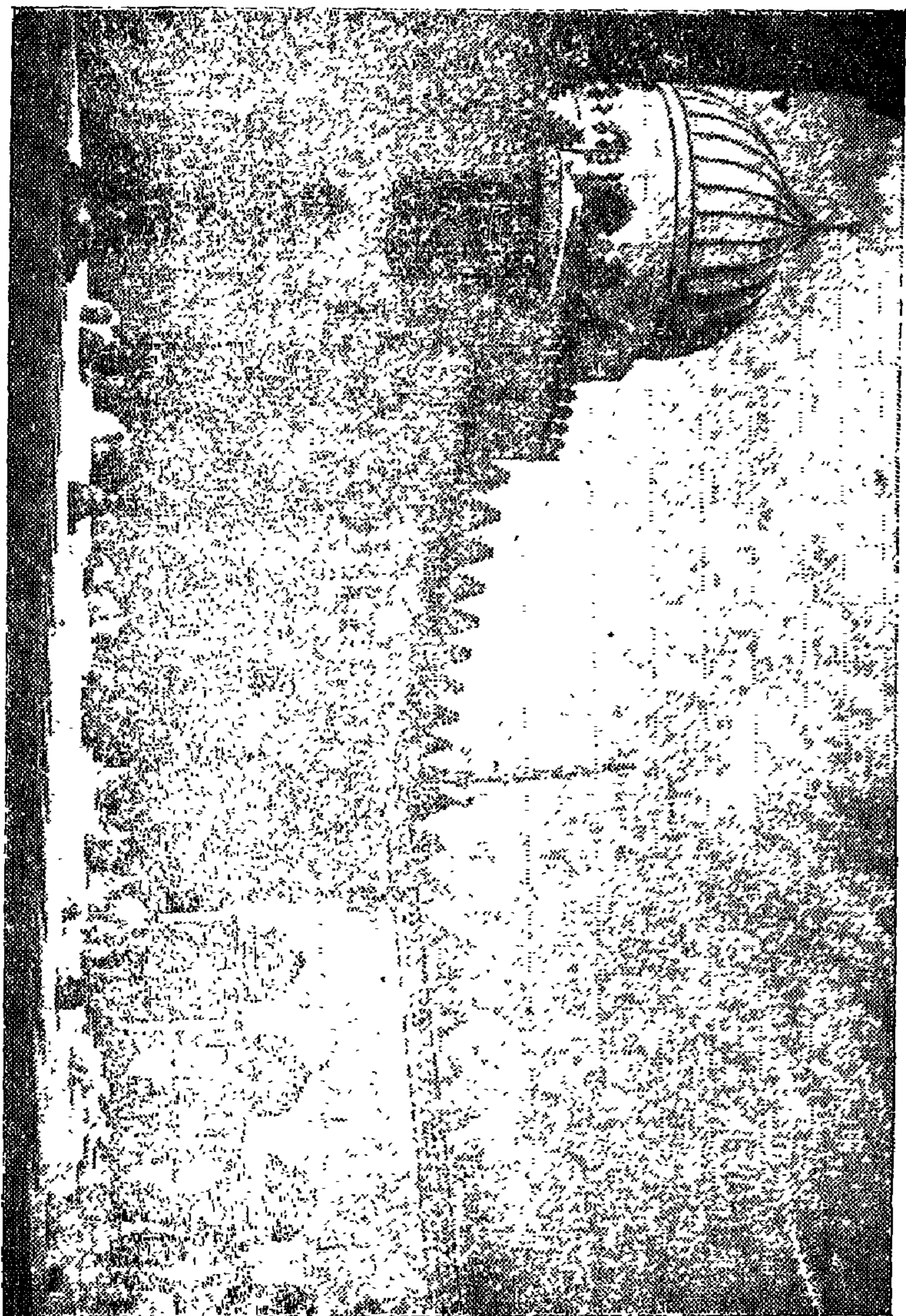
٢ — الجامع الأزهر الشريف
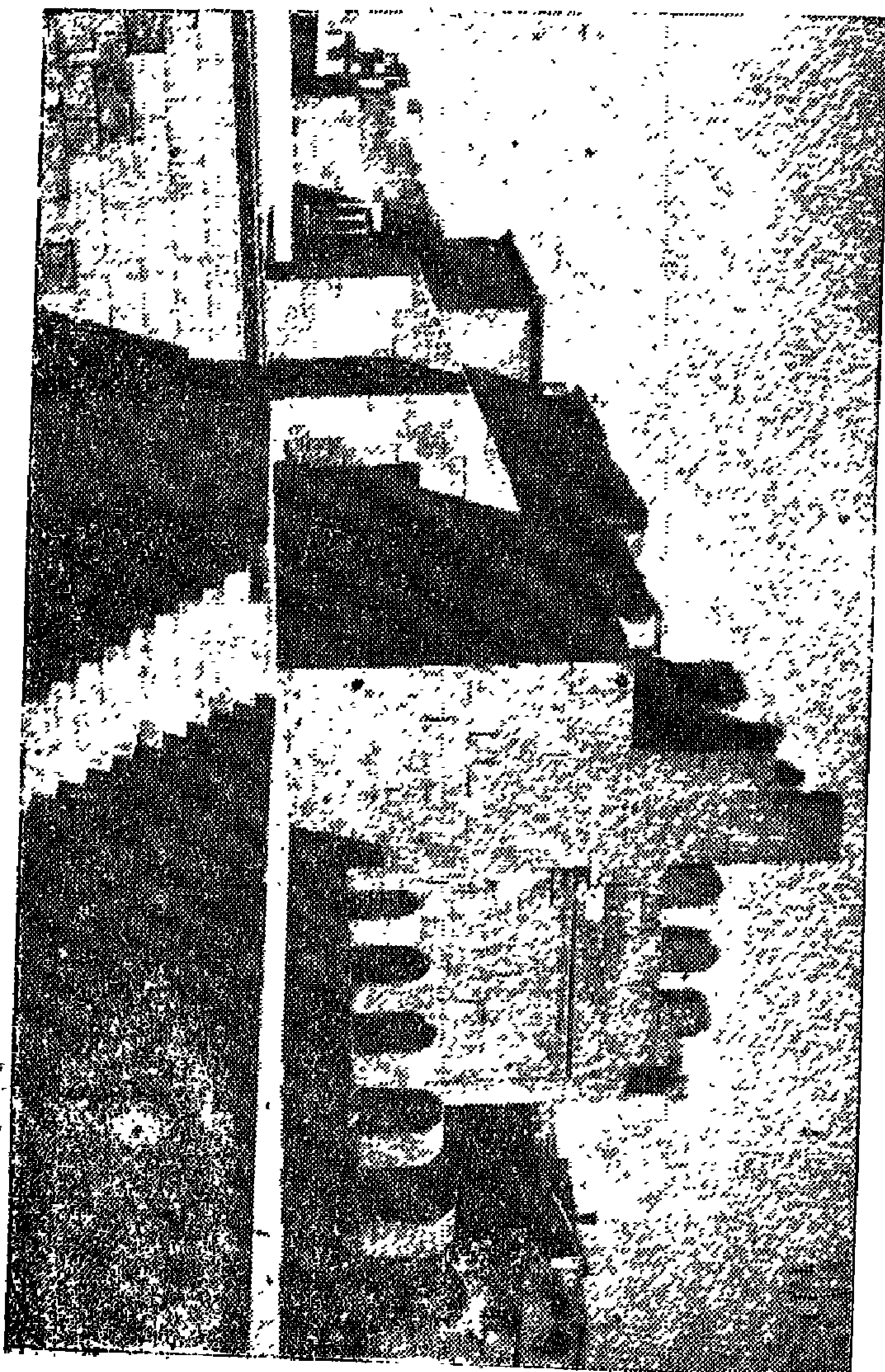
٣ — قطعة من سور القاهرة الشمالى
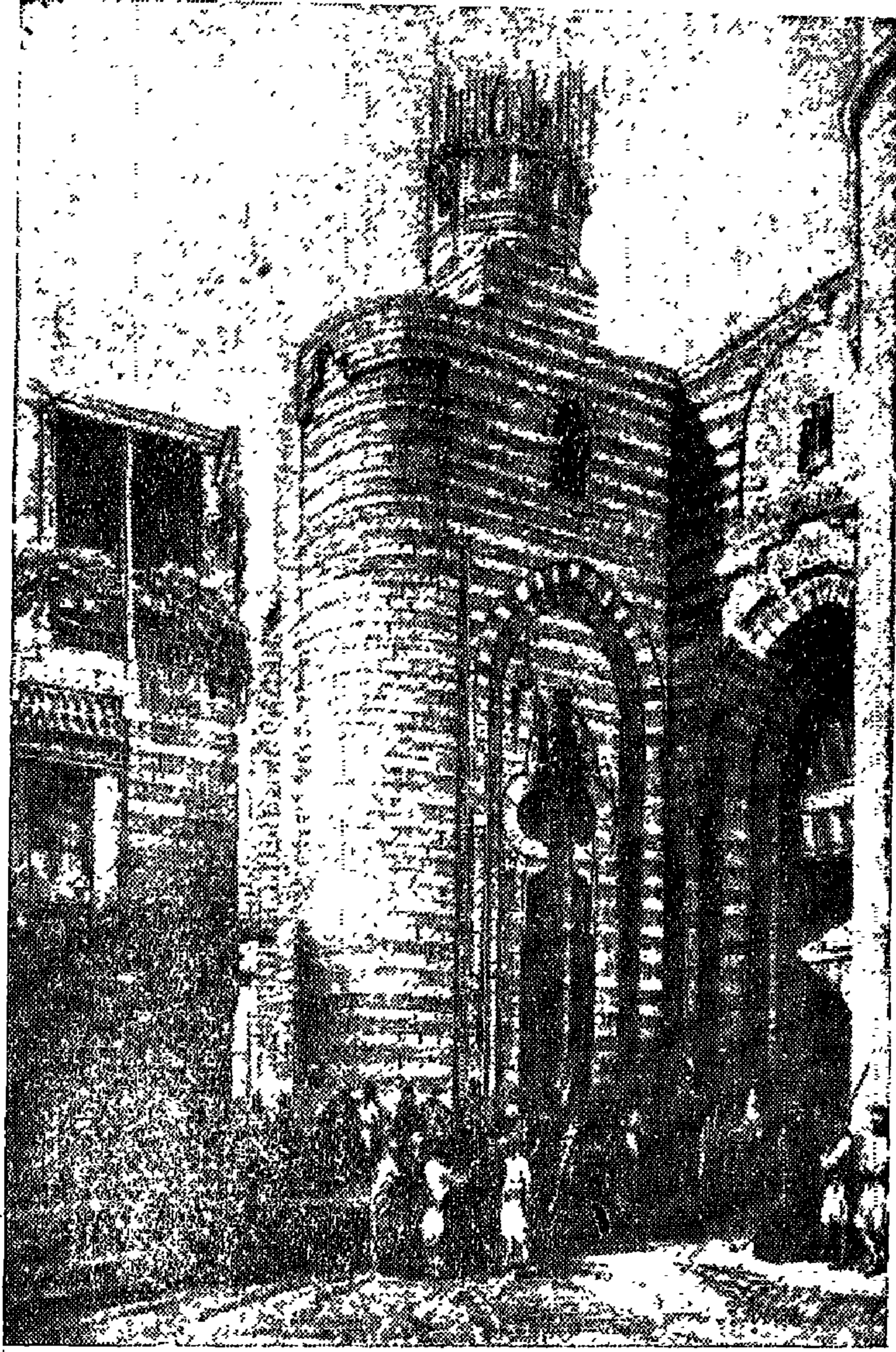
٤ — باب زويلة (المتولى) بسور القاهرة الجنوبى
للرسام البريطانى ديفيد روبرتس

٥ — باب النصر بسور القاهرة الشمالى
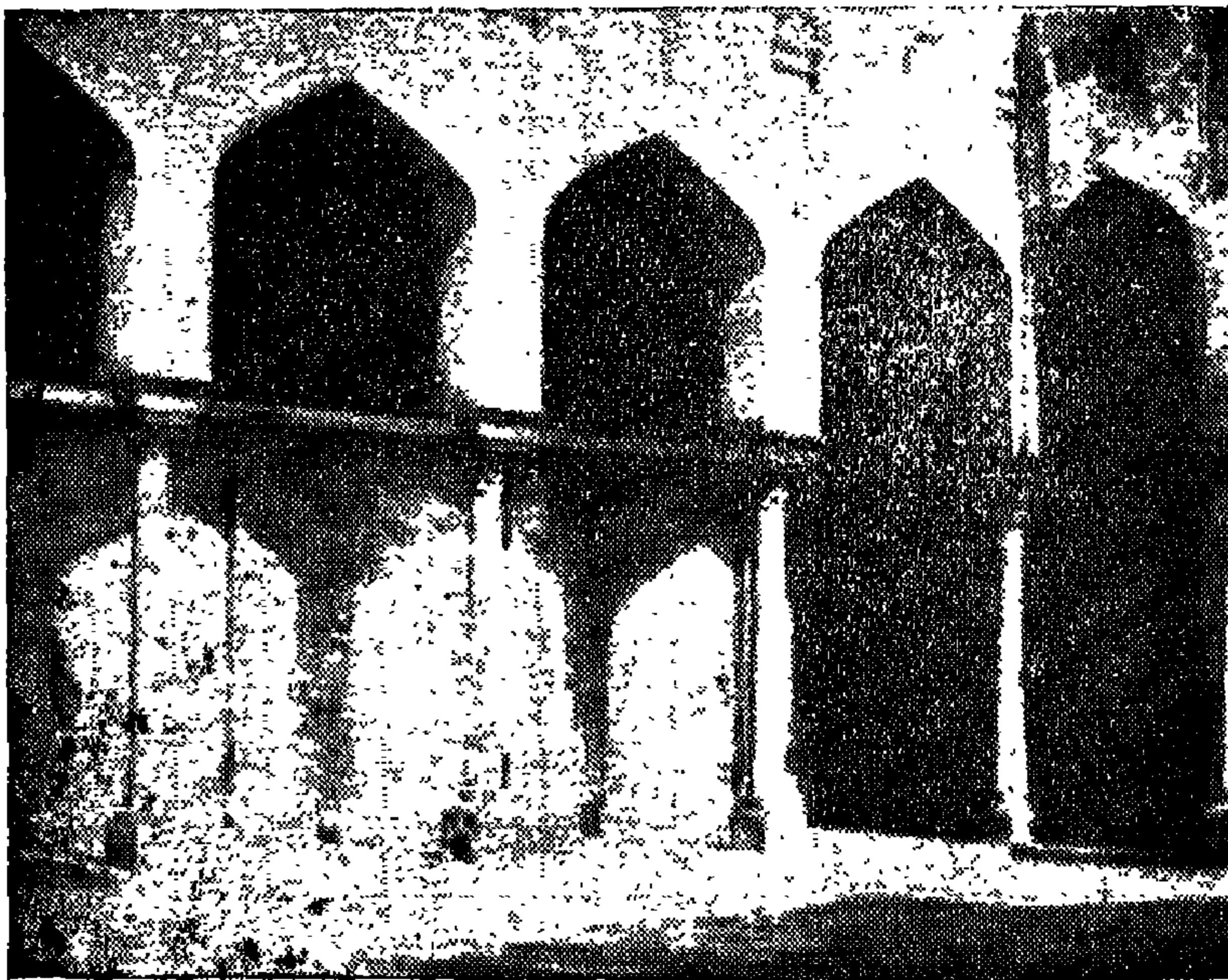
٦ — جامع الصالح طلائع الفاطمى
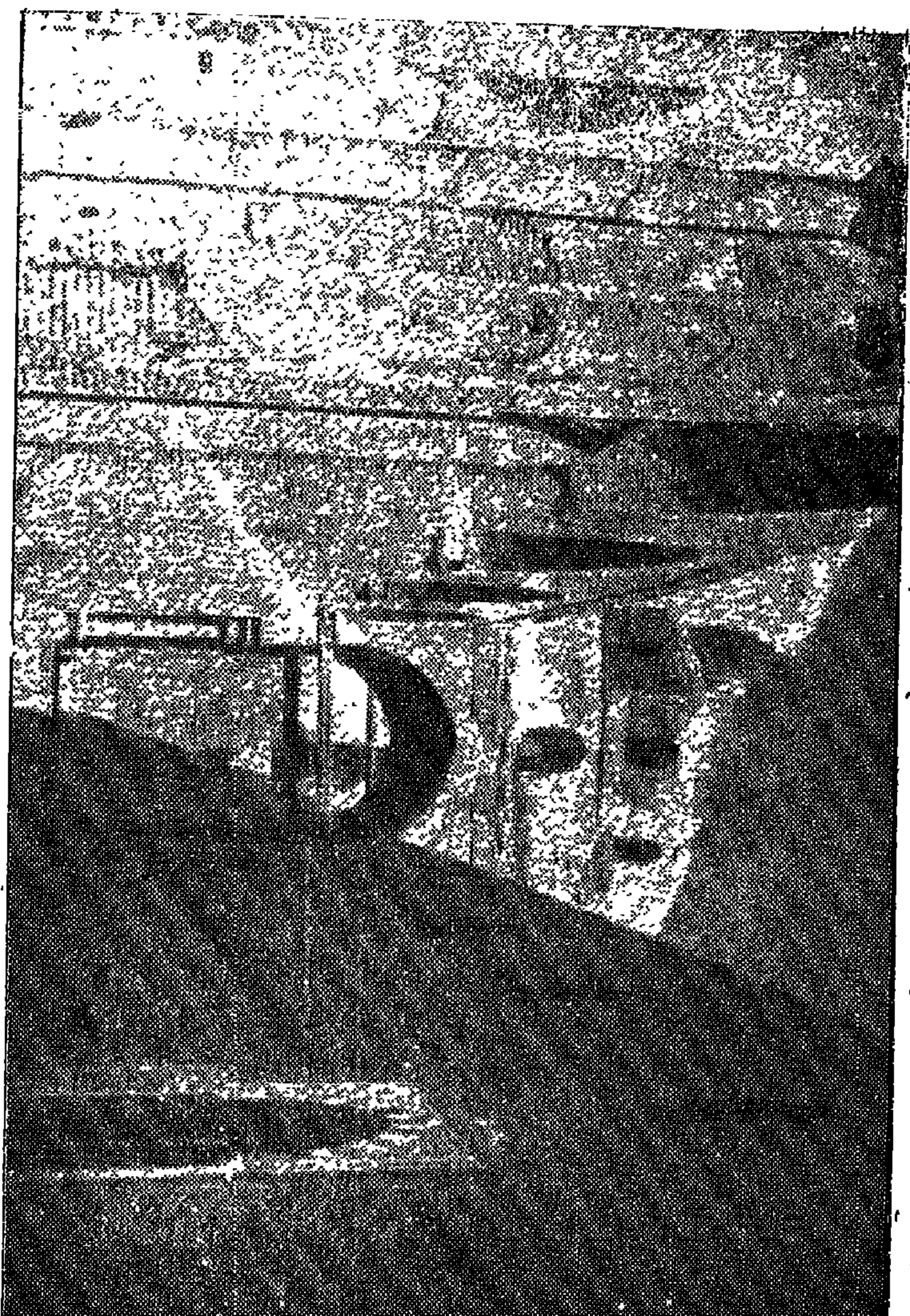
٧ — جامع الحاكم بأمر الله ويرى المحراب إلى يمين الصورة
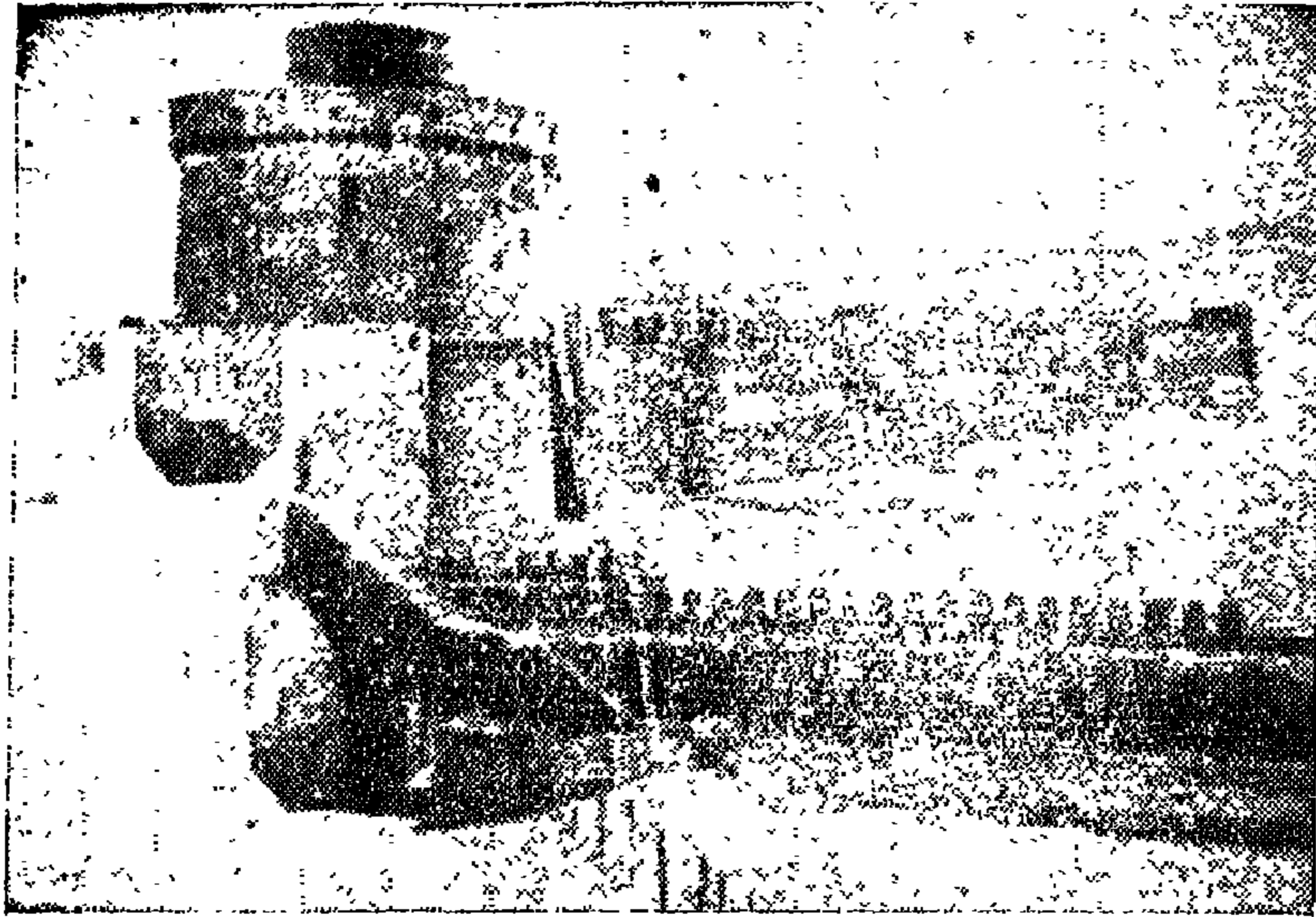
٨ — سور قلعة صلاح الدين الأيوبى الجنوبى وبعض الأبراج بالقاهرة
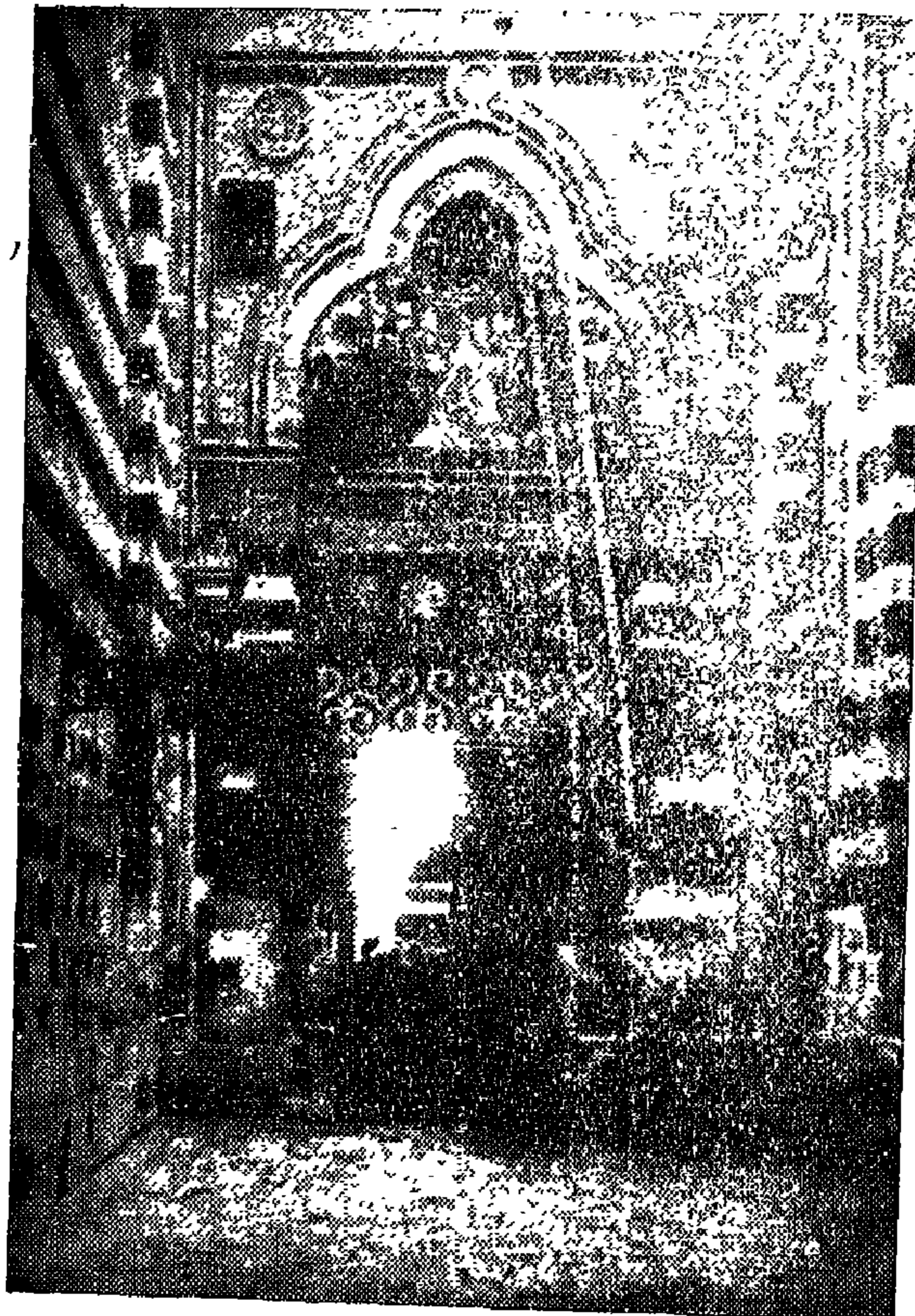
٩ — باب الجامع الازهر الداخلى
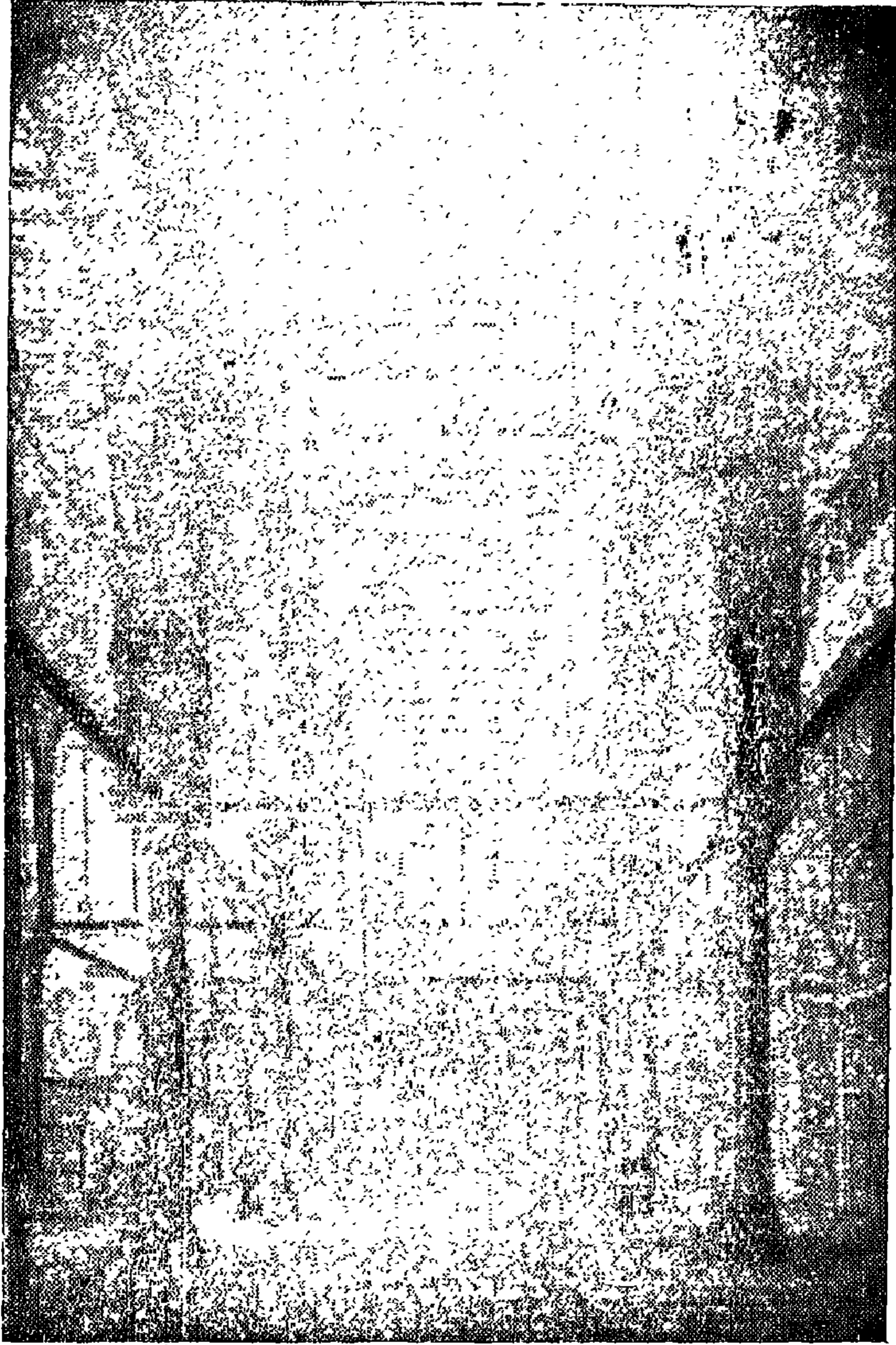
١٠ — الايوان الرئيسى وبه المحراب والمنبر
لجامع المؤيد
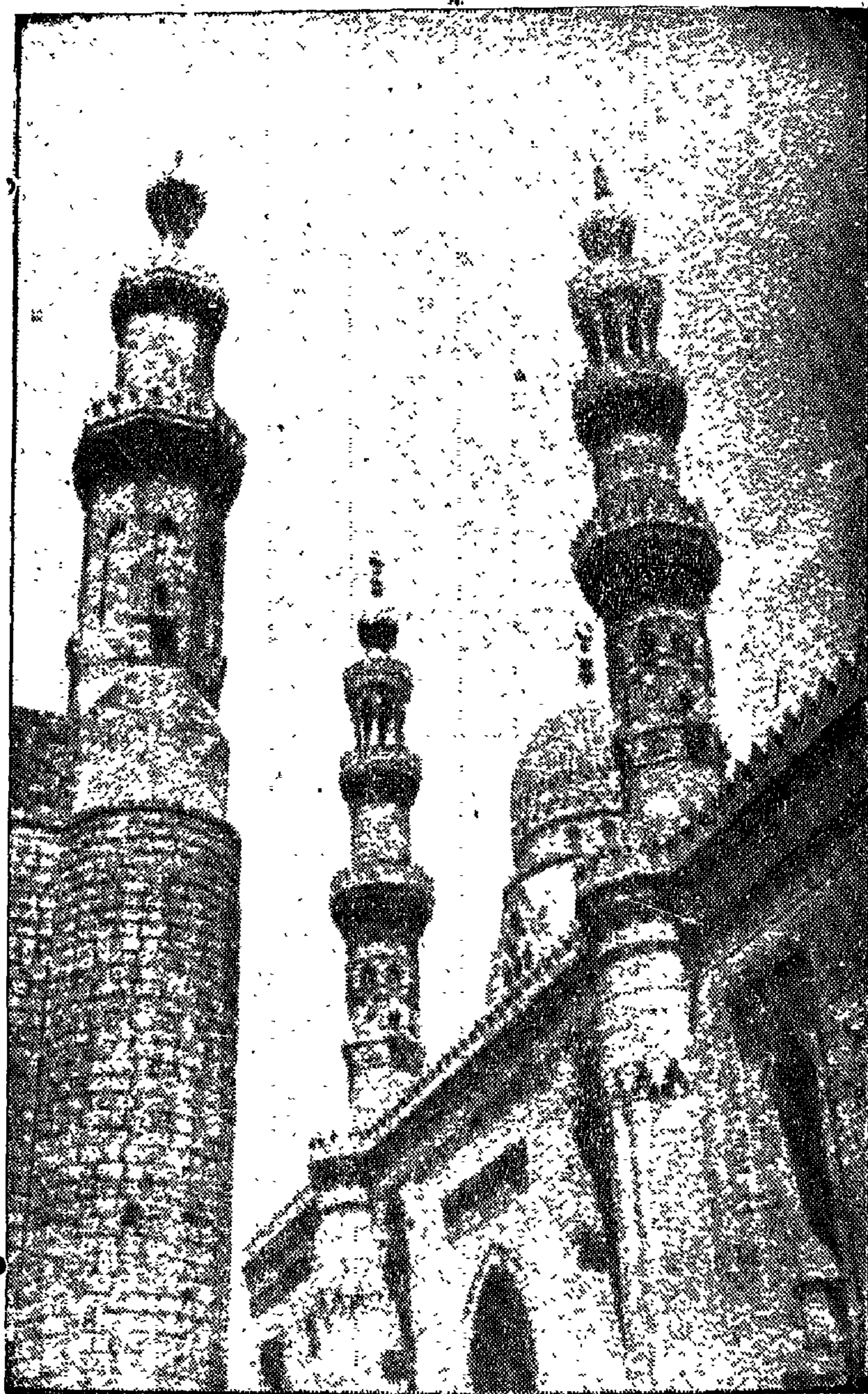
١١ — مآذن مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعى بالقلعة
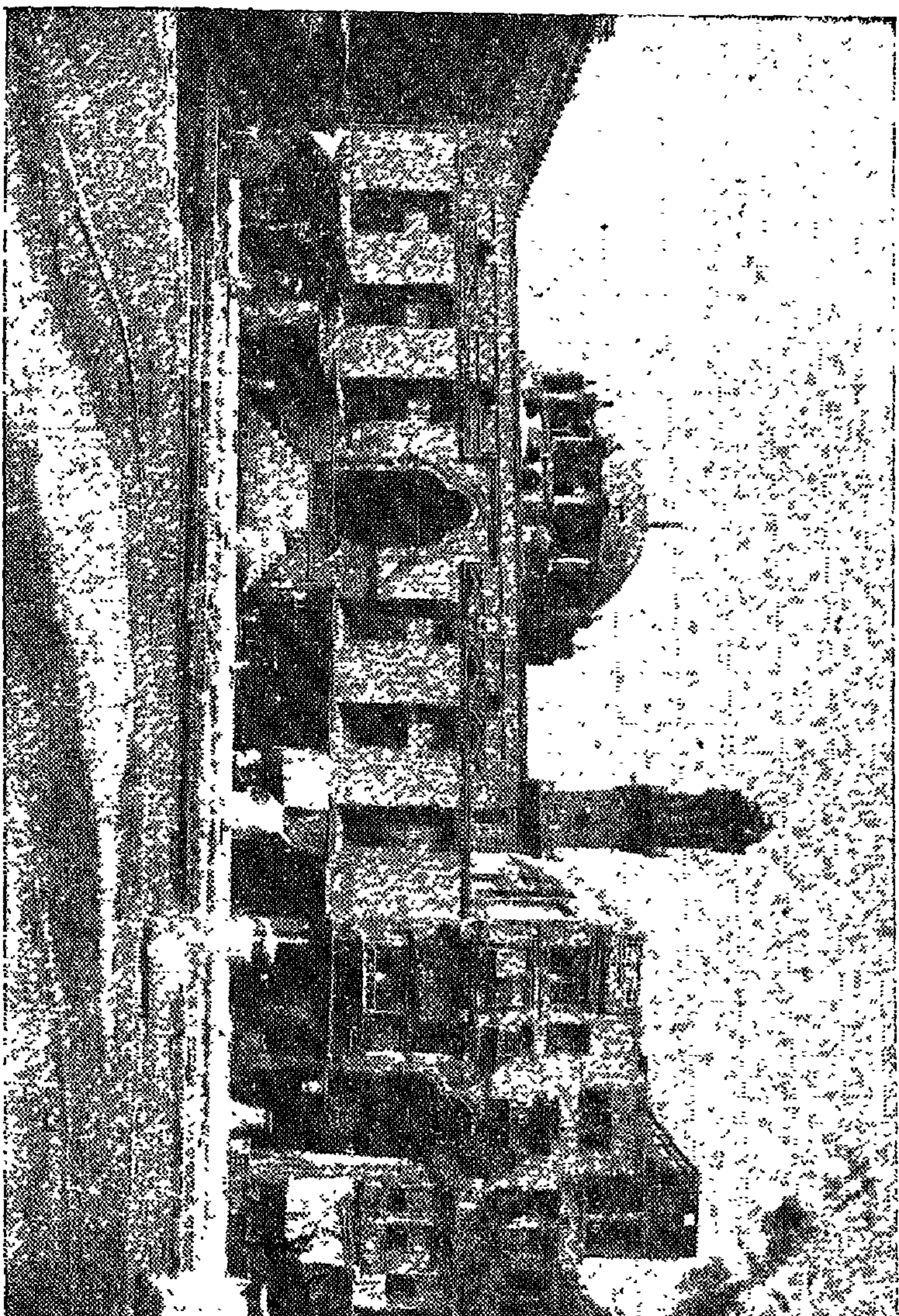
١٢ — جامع محمد أبو الذهب (الواجهة الشمالية) في ميدان الأزهر
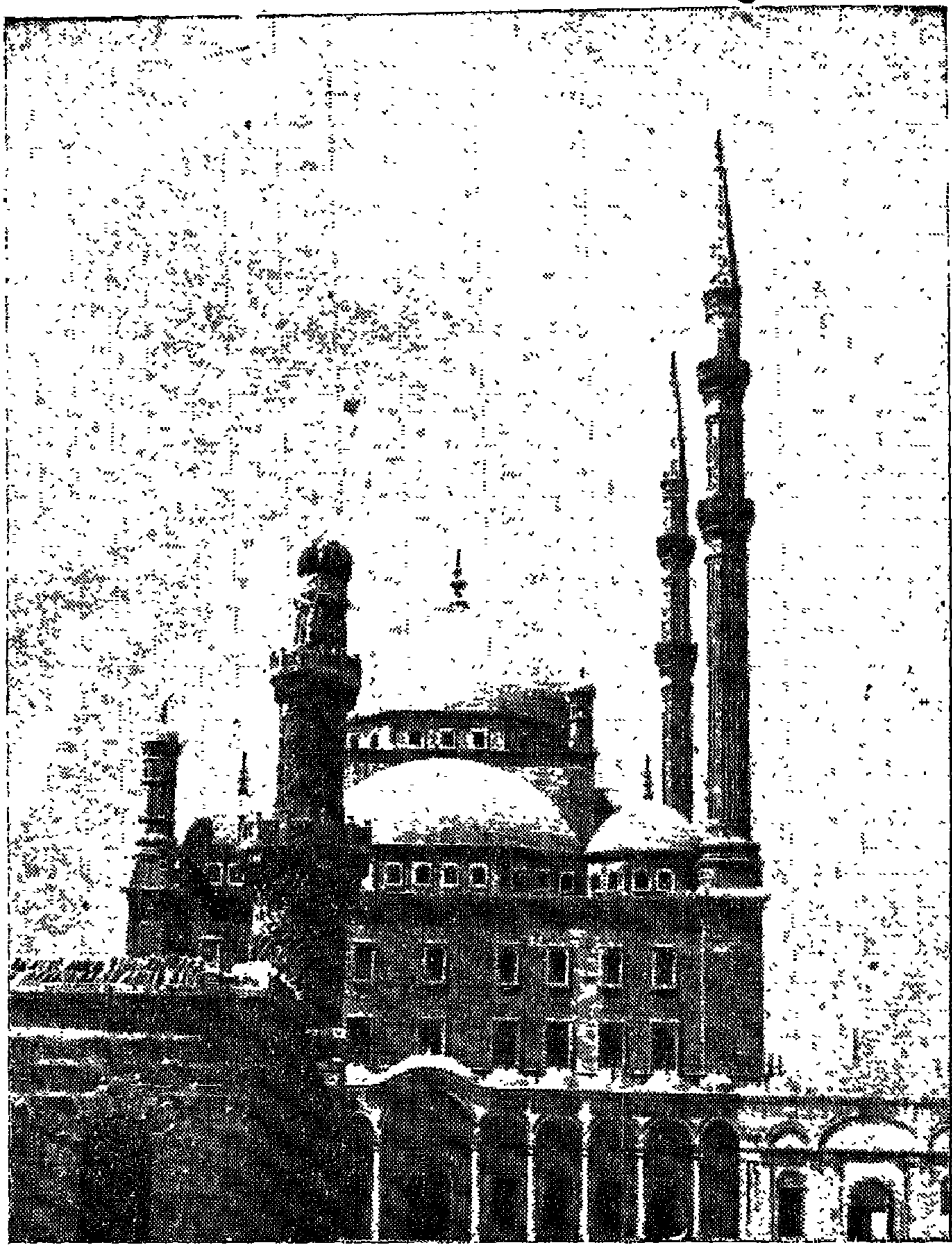
١٣ — مئذنتا جامع محمد على وقبابة وواحدة من مآذن
جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

١٤ — جامع محمد على ومنبره الفخم — قلعة صلاح الدين
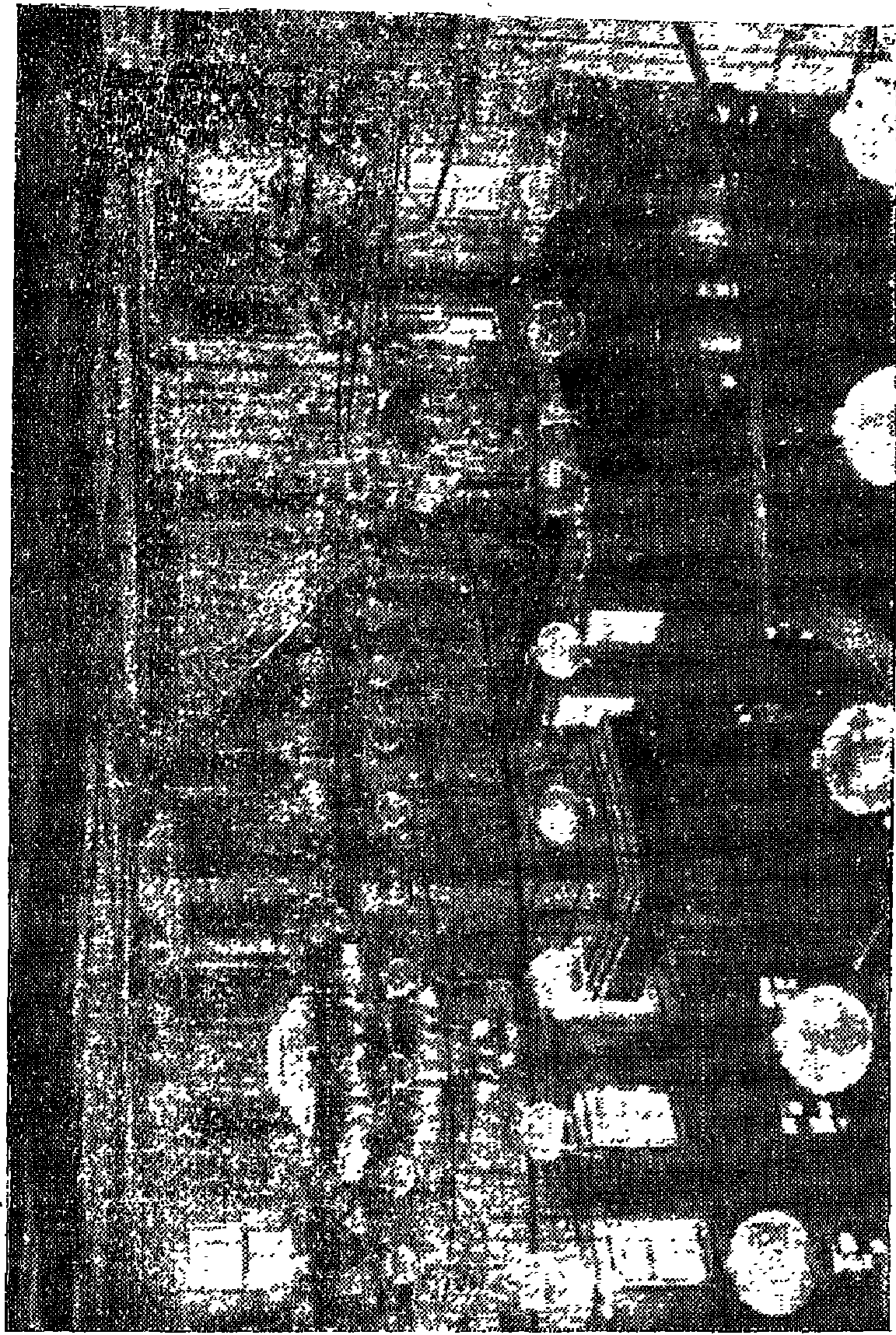
١٥ ــ كنيسة أبي السيفين بمصر القديمة ــ صحن الكنيسة وحجاب الهيكل الأوسط
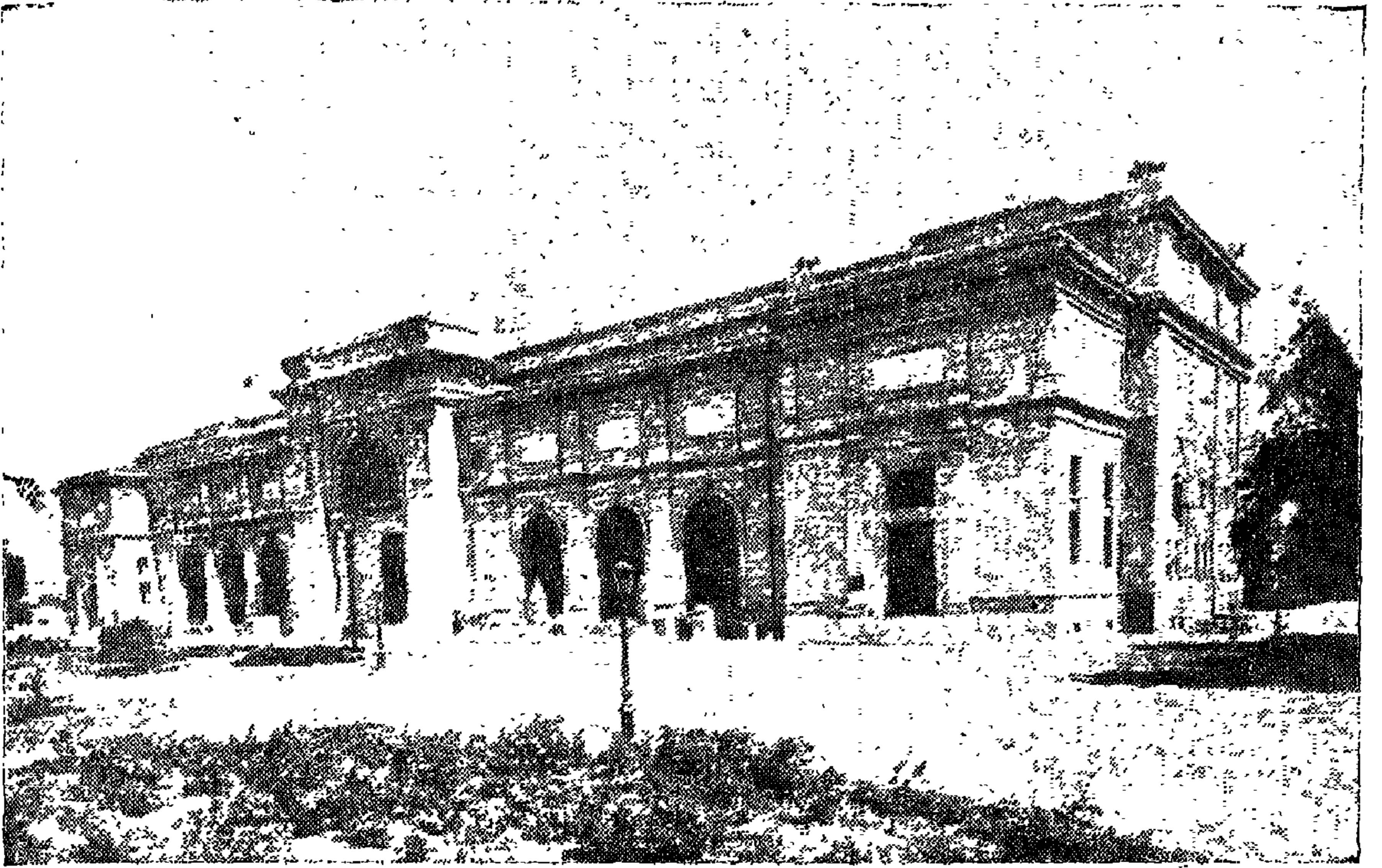
١٦ — المتحف المصرى : الواجهة
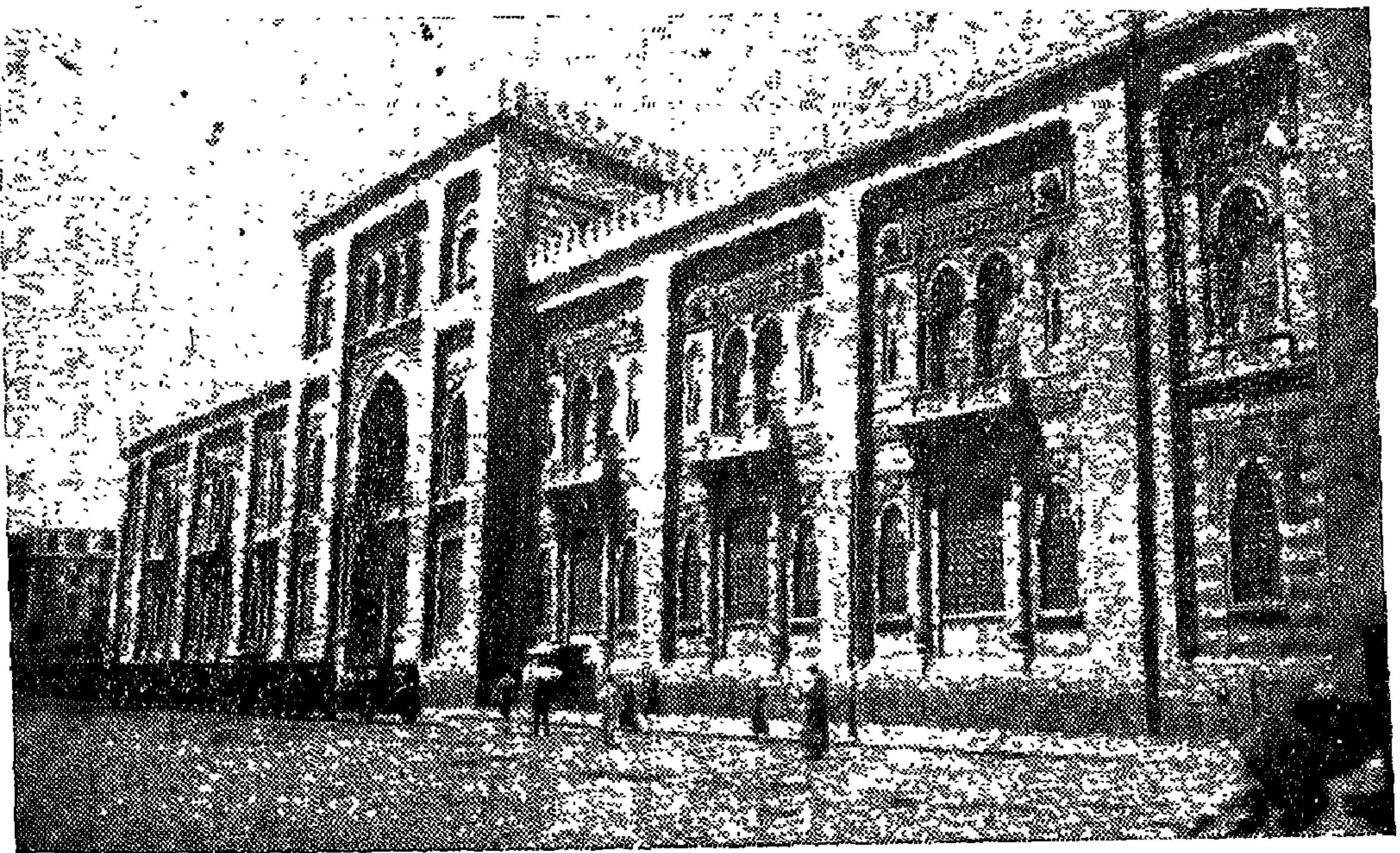
١٧ — دار الكتب القومية فى مقرها الأول ومتحف الفن الإسلامى بميدان أحمد ماهر
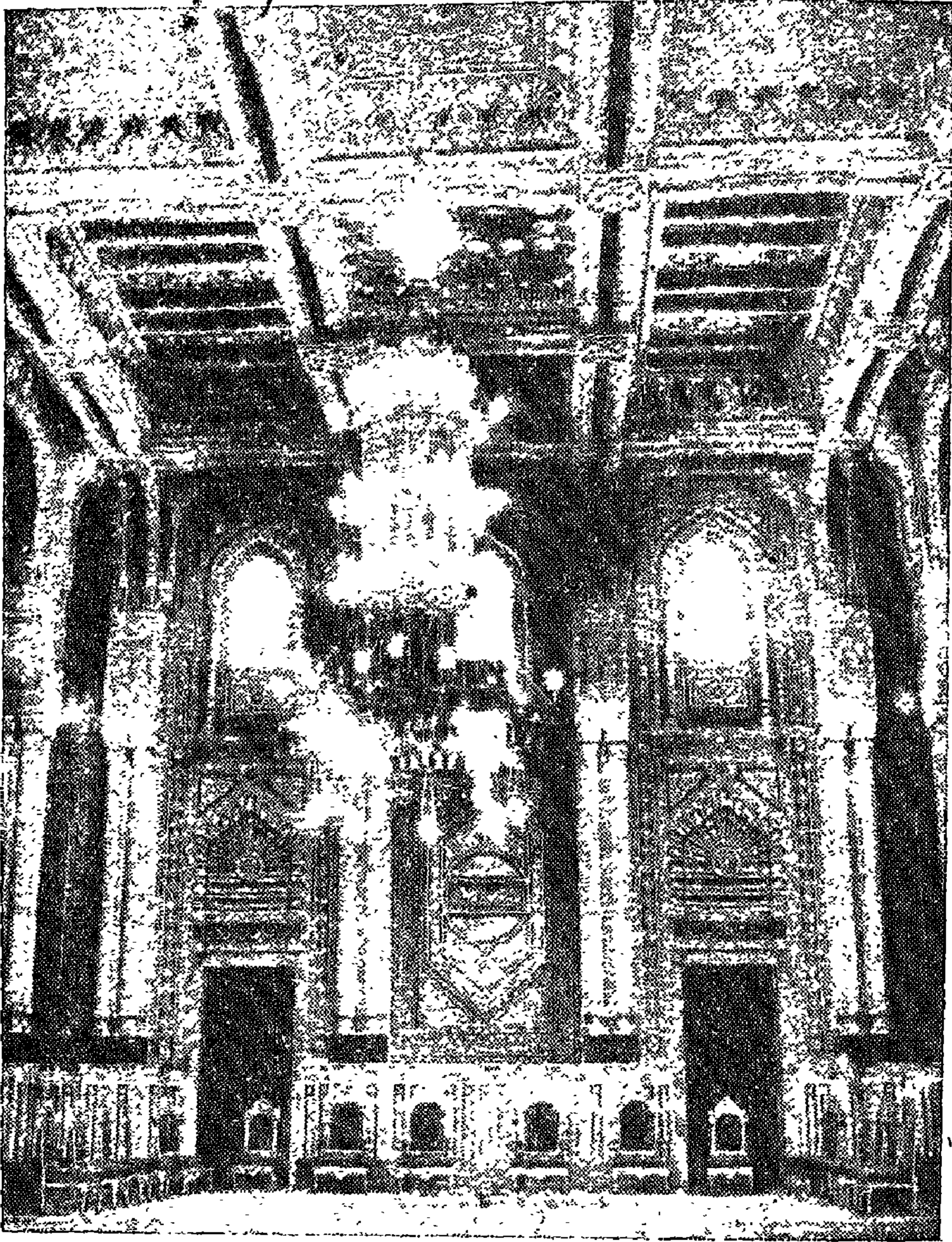
١٨ – قاعة بالطراز العربي في قصر عابدين الجمهوري
بميدان الجمهورية
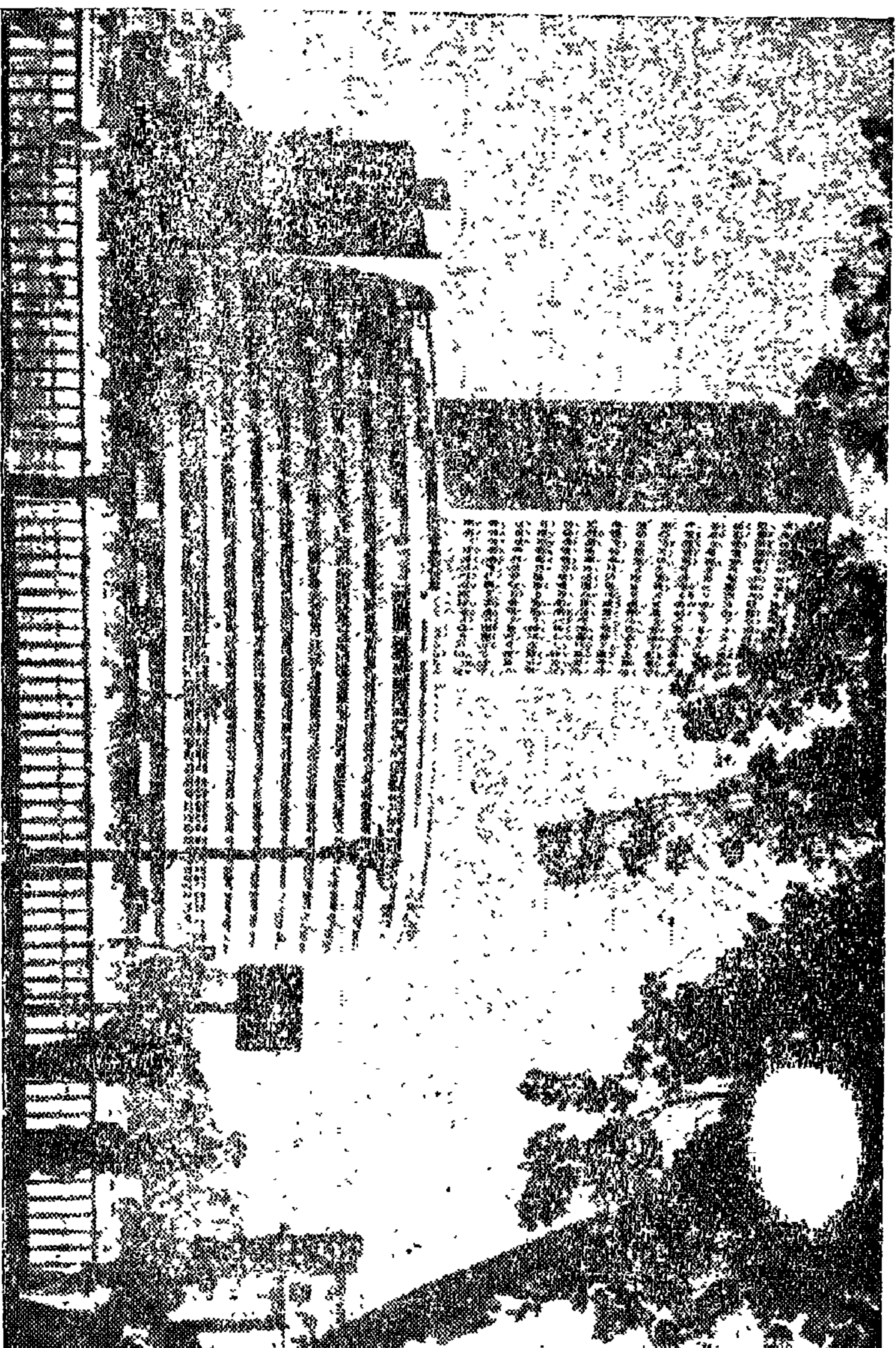
١٩ — مبنى الإذاعة والتليفزيون المطل على نهر النيل

— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة(١) .

• وكذلك العينى صاحب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان »(٢) . وابن عربشاه مؤلف « عجائب المقدور فى أخبار تيمور »(٣) . وخليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » . (ت ١٤٦٩) . والمؤرخ أبو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ م - ١٤٧٠) الذى ألف عدة أسفار فى التاريخ الإسلامى ، أهمها النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة والمنهل الصافى .

• وعاصر أبا المحاسن إثنين من مشاهير المؤرخين هما ابن الصيرفى(ت١٤٩٤) وأبو الخير محمد السخاوى (١٤٢٧ — ١٤٩٧) .

ولأولهما : نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان — إنباء الهصر فى أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباى — الجوهرية فى السيرة النبوية وثانيهما . عدة مؤلفات قيمة أهمها : التبر المسلوك فى ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القراء — المنتقى من تاريخ

---

(١) راجع ترجمة حياته فى المصدر السابق ص ١٨-٢٠ .

(٢) يقع هذا الكتاب فى ٣٣ جزءا ،وهو محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ معارف — وقد ولد العينى فى الشام ، وجاء إلى مصر وعين فى أوائل القرن التاسع الهجرى محتسبا للقاهرة والوجه البحرى.

(٣) هو أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عربشاه ولد سنة (٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) بدمشق ورحل منها إلى بلدان عدة . ونزح إلى القاهرة فى زمن الملك الظاهر جقمق . ومات عام ٨٥٤هـ-١٤٥٠ — جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية جـ٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

مكة — تلخيص تاريخ اليمن — الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .. إلخ .

* والمؤرخ محمد بن أحمد بن أياس المصرى كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية (١٤٤٨ — ١٥٢٤) كتب لنا : بدائع الزهور فى وقائع الدهور — عقود الجمان فى وقائع الزمان — نزهة الأمم فى العجائب والحكم — مرج الزهور فى وقائع الدهور — نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

* ومن زملاء ابن أياس — المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٨٤٩هـ / ١٤٤٥ - ٩١١ / ١٥٠٥) الذى كتب فى فنون عدة — من أهمها :

حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — تاريخ أسيوط — الشماريخ فى علم التاريخ — نظم العقيان فى أعيان الاعيان — الملتقط من الدور الكامنة . والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين (ت ١٥١٤) الذى ولد بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان أبوه متوليا نيابتها من قبل السلطان جقمق.وقد شغف بالسفر وبالتحصيل الواسع ثم استقر أخيرا بالقاهرة فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ : ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ، وكتاب «نيل الأمل» وهو تكملة لتاريخ الذهبى وكتاب «الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم» ، وكتاب « تاريخ الأنبياء » ، وزميله حسن ابن حسين الطولونى المولود فى عام١٤٣٢، والمتوفى عام ١٥٧١ ، إتجه إلى التاريخ والفقه والأدب والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان إينال والسلطان قايتباى الذى ولاه نيابة القلعة فوجده مخلصا لقيامه بتحصينها عظيما . ولابن الطولونى كتاب « النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . ثم الإدفوى

(ت ١٣٤٧) صاحب الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد – والبدر السافر وتحفة المسافر فى تراجم مشاهير القرن السابع. والمؤرخ ابن وصيف شاه المصرى صاحب « جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور » ، وجمال الدين بن واصل الفقيه الفيلسوف المؤرخ صاحب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . والمؤرخ أبو البقاء بن الجيعان (توفى نحو عام ٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) صاحب القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف .. وغيرهم .

والمؤرخ ابن زنبل الرمال (ت . بعد ١٥٥٧) « كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ، والدرة اليتيمة فى مصر القديمة ، وتحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب .

* * *

ومن أهم الأسباب التى دعت إلى علو شان الثقافة وانتعاش الحياة الأدبية فى مصر على أيام المماليك — كثرة وفود المهاجرين من علماء الشرق والمغرب إلى بلدان الشرق الوسيط وخاصة القاهرة نتيجة لسقوط بغداد مركز الحضارة الإسلامية على يد جحافل التتار تحت زعامة هولاكو (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨) وغيرها من المدائن الحافلة بكنوز التراث كبخارى وسمرقند ومرو ونيشابور وإصفهان وحلب والموصل . فقد هاجر كثير من علمائها إلى الممالك التى غربى نهر الفرات كالحجاز والشام وفلسطين ومصر . وكان جلهم يفضل الإقامة فى المدائن الكبرى ، كمكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف ودمشق والقاهرة والفسطاط والاسكندرية .

وحدث مثل ذلك تماما فى الأندلس ، حين نشط الإسبان فى استرداد أراضيهم تدريجا من العرب ، فهاجر كثير من المسلمين إلى الأقطار الشرقية ، كالمغرب وتونس ومصر ، لا سيا الاسكندرية والقاهرة .. ونقلوا معهم كتبهم وعلومهم ، وكان للقاهرة أوفر نصيب .

وقد استقبل سلاطين المماليك والأمراء هؤلاء المهاجرين استقبالا كريما ، وخصصوا لكل عالم ذى شأن مدرسة من مدارسهم الكثيرة ليدرس فيها العلوم التى نبغ هو فيها فى بلده ، كما اختاروا بعضهم للعمل فى دواوين الحكومة كابن منظور الأفريقى صاحب «لسان العرب» ، واتخذوا منهم مدرسين فى مدارسهم الخاصة ، وصارت مصر والقاهرة وطنا ثانيا لكثير منهم ، كابن فرح القرطبى صاحب التفسير المشهور . وكانت القاهرة تبذل لكل هؤلاء الوافدين الرواتب الكريمة[1] .

---

(١) د . مصطفى السقا : الحياة الأدبية فى مدينة القاهرة . كتاب ندوة ألفية القاهرة المنعقدة فى القاهرة أبريل ١٩٦٩ :

القاهرة

في العصر العثماني (١٥١٧ - ١٨٠٥م)

لما أصبحت مصر تحت سيادة العثمانيين (١٥١٧) تحولت القاهرة من حاضرة دولة كبرى إلى عاصمة ولاية عثمانية يديرها وال من الولاة العثمانيين فيقوم بارسال الجزية إلى السلطان وينفذ أوامره . ولا يخفى أنه كان للسياسة الداخلية التى اتبعها معظم الولاة فى حكم مصر أثر واضح فى الانقسام والفتنة والمؤامرات الداخلية التى كانت تنشب بين الزعماء مما كان يسبب سفك دماء الشعب، وانتشار الخراب، وهلاك السكان . فانكمشت القاهرة وذبلت حياتها الاقتصادية ،ومن ثم قل عدد سكانها.ومن المدهش أن يقدر كوستيلا Costella عدد سكان القاهرة سنة١٦٠٣ بحوالى ثلاثةملايين نسمة بالإضافة إلى النساء والأطفال،وهو تقدير مبالغ جدا.

* الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقى) Leone Africanus

ولدينا مرجع هام فى كتاب رحلة الحسن بن محمد الوزان الذى تلقى العلم فى واحدة من مدن شمال افريقية على أشهر أساتذتها فأفاد من علمهم فى اللغة العربية والدين والتاريخ الإسلامى ، وقرأ ما صنفه أبو عبيد البكرى الجغرافى والمسعودى المؤرخ ، وغيرهما . ويهمنا فيما كتبه ، الفصل الموجز عن القاهرة ، بعد أن تناول وصف مصر وحدودها وطبيعة أرضها وشعبها ، ثم مدنها الهامة وفيضان نيلها ، وقد أطنب فى وصف الاسكندرية وماضيها ومدارسها وحديثه عن القاهرة يمتاز بالدقة ، يقول عنها :

* هى أعظم وأشهر مدن العالم تقع على سهل فسيح يمتد من المقطم وعلى

بعد حوالى ميلين من النيل وتحيطها أسوار ضخمة تكتنفها أبواب عالية ، أهمها أبواب زويلة والفتوح والنصر . أقيمت فيها القصور العظام والدور الرائعة والجوامع والمدارس الشامخة ، ومن أروعها : جامع الحاكم بأمر الله ، ثم وصف الحسن بن محمد شارع بين القصرين ، وما فيه من حوانيت بائعى الشربات ، وذكر مدرسة السلطان الغورى وكان انتهى من بنائها قبيل وصول رحالتنا الحسن بسنوات ، ومر بدكاكين القماشين ، ووصف مارستان المنصور قلاوون العظيم ، وعرج على خط زويلة غرب الباب وكان يقطنه قرابة اثنتين وعشرة ألف أسرة ، وكان على مسافة ميل فى اتجاه الجنوب الغربى يقع حى اللوق ويسكنه بعض الأعيان ، ثم وصف مدرسة مسجد السلطان حسن المواجه للقلعة . وقال عن حى اللوق أن به مسجد (١) ومدرسة الأمير أزبك اليوسفى ، وأطلق على الحى اسم الأمير ، فصار يعرف بحى الأزبكية وكان من أهم أحياء القاهرة المترفه يقصده الناس للترفيه حيث كان يعرض اللاعبون والحواة ومدربو الحيوان ألاعيبهم ، وكذلك كان يجلس القرفصاء المنجمون لكشف طوالع الناس بوساطة الطير ، وقد أراد الحسن أن يعرف طالعه ، فكان نحسا . وزار الرحالة حى بولاق ملتقى تجار القمح والزيت والسكر وكان يزخر بالمدارس والمساجد والدور وتؤم الشاطىء السفن الشراعية المحملة بالعروض المنوعة القادمة من الشمال .

رحالة اوربيون

وصف القاهرة فى العصر العثمانى بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفى طليعتهم جيفا أفاجار (٢) وقد زارها عام ١٥٣٤ قال :

---

(١) كان يقع هذا المسجد فى منطقة العتبة الخضراء وقد هدم ليقام تمثال ابراهيم باشا فى مكانه الأول وذلك قبل نقله فى مواجهة دار الأوبرا التى حرقت منذ أعوام .

(٢) Affagart, Jeffin : Relation de Terre Sainte. Edited by J. Chavanon, V. Lecoffre, 1902.

« تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أميال » (قدر مساحة باريز) وهى ذات شوارع ضيقة وملتوية وقصيرة وأكثرها غير منظم. وبعض هذه الطرقات مسقف بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف . وفى أشد ساعات الحر يغلق أصحاب الحوانيت متاجرهم ، فتتضاءل الحركة ويركن الناس فى بيوتهم ، أما فى الليل فتضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام دورهم .

* وزار الكاتب « جان دى تيفنو » القاهرة بين عامى (١٦٥٦/١٦٥٨) وذكر عنها فى كتابه عن سياحاته فى بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة فى سنة ١٦٥٦ .

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حمارا، وطوف حول المدينة والقلعة . فقطع تلك المسافة فى ساعتين وربع الساعة ، ثم سار من بداية الخليج إلى آخره مشيا على القدمين ليعرف امتداد المدينة . فقال أن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم ، وقال إنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبرك عدة تحيط بها منازل فسيحة .

* جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » (Jean de Thvoenaut) رحالة آخر اسمه « فانسلب » زار مصر عام ١٦٧٢ . جاء مبعوثا من لدى الملك لويس ؟ وقضى ستة عشر عاما فيها وقد شغف بالآثار المصرية وتعلم اللغة العربية وألف كتابا جيدا وصف فيه مصر عام ١٧٣٥(١) .

فى ذلك الحين كانت قصور المماليك وأعيان التجار تؤلف منها أحياء

---

(١) Vansleb, J. M. Nouvelle Relation en forme de Journal d'un Second Voyage fait en Egypte, en 1672.

أرستقراطية تنهض حول بركة الفيل والبركة الناصرية والأزبكية ، وتتناثر قريبا من النيل والخليج بين البساتين . وقد بقيت حدود القاهرة فى أيام العثمانيين على ما كانت عليه فى أيام المماليك الشراكسة ، فكان باب الحديد نهاية حدود العمران فى الشمال الغربى ، والأزبكية وما حولها من ميان نهاية العمران غربا ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة تكاد أن تكون خالية من البناء . كذلك كانت مصر القديمة . وقد كثرت بأحياء المدينة المبانى المتهدمة ، ودرست معظم قصور السلاطين والأمراء فيما عدا القليل منها . وبالرغم مما أصاب القاهرة من التدهور ، فقد أنشئت فيها المساجد والتكايا والأسبلة ، والدور التى سنذكرها بعد قليل .

* وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر زار مصر الرحالة البريطانى القس ريتشارد بوكوك (Richard Pococke) أثناء رحلته الطويلة فى الشرق ، ثم كتب مؤلفه النفيس رحلة للشرق وبلاد أخرى(١٧٤٣ - ١٧٤٥)(١) فى مجلدين . جاء هذا القس العلامة عن طريق الاسكندرية وقصد رشيد لزيارة البطريرك « كوسماس » وتعرف على بعض كبار المسلمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من رهبان الفرنسكان ، ثم زار المحلة الكبرى ، وأخيرا قصد القاهرة وقضى فيها أسابيع يدرس أحوال أهلها وآثارها . ثم زار الفيوم ، وعاد منها إلى النيل ليصعده فى زيارة لآثار الوجه القبلى .

* وفى العام ١٧٣٧ جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » (Frederick Norden) من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك ، وكتب عن رحلته كتابه الجيد « رحلة إلى مصر »(٢) وبلاد النوبة فى جزئين ، ويعتبر مؤلفه من

---

(١) 1. Pococke, R.: A Description of the East, and some other Countries. 2 vol. London 1743 - 45

(٢) Travels in Egypt and Nubia. 2 vols., with 161 pls. London 1757.

أهم ما كتب فى الرحلات الشرقية وأوفاها — وللكتاب ملحق مصور فيه بعض اللوحات للاسكندرية وقلعة قايتباى ورشيد ومصر القديمة وغيرها من أقاليم مصر الأخرى .

وقد أتيح للقاهرة فى أيام العثمانيين ، رجال كان لهم الفضل فى إثراء القاهرة بكثير من العمائر الجميلة بطابع البناء العثمانى . هذا البناء العظيم هو الأمير عبد الرحمن كتخدا الذى شغل منصبا يعادل اليوم منصب محافظ القاهرة . أنشأ عبد الرحمن المساجد والزوايا والأسبلة والأضرحة كما أضاف ، إلى الأزهر أروقة كثيرة فزادت مساحته . ويتجلى جمال عمائره فى ذلك السبيل الرائع الذى ينهض عند ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والذى يحمل اسم صاحبه إلى اليوم ، ويعلو هذا السبيل مكتبا أو مدرسة لتحفيظ الصبية — القرآن الكريم .

* وتشاء الظروف أن يستقل الأمير على بك الكبير (١٧٥٥ — ١٧٧٢) بمصر ويطرد الوالى العثمانى منها ، وكان موفقا فى حروبه ضد العثمانيين حتى خانه زميله محمد أبو الذهب ويتغلب عليه ويتولى منصبه فيعيد مصر إلى أحضان الخليفة العثمانى . وفى أيام على بك الكبير جاء إلى مصر الرحالة جيمس بروس (James Bruce) فى طريقه إلى إثيوبيا وقابل المعلم رزق من كبار المتخصصين فى علم الفلك فأفاد الرحالة كثيراً من علمه وقضى عدة أيام فى ضيافة بطريرك الأقباط فى مصر القديمة .

شيد فى القاهرة فى أيام العثمانيين (قرابة ثلاثمائة سنة) كثير من المساجد كان أولها مسجد خاير بك الذى دفن فيه بحى باب الوزير ، ومسجد سليمان باشا (سيدى سارية) بالقلعة (١٥٢٨) ، وسبيل خسرو باشا بالنحاسين (١٥٣٥) ، ومسجد داود باشا (١٥٤٨) ، ومسجد محمود باشا (المحمودية) بالمنشية (١٥٦٨) ، ومسجد الوالى سنان ببولاق (١٥٧١) ومسجد الملكة

صفية بالداودية (١٦١٠) ومسجد البرديني بالدرب الأحمر (١٦١٦) — ومسجد يوسف الحيني بشارع درب الجماميز (١٦٢٥) ، وبيت وسبيل السكريتلية (١٦٣١) ومنزل جمال الدين الذهبي (١٦٣٧) وسبيل ابراهيم أغا بشارع التبانة (١٦٣٩) ومنزل الشيخ السحيمي (١٦٤٨/٤٩) ومقعد رضوان بك (١٦٥٠) ومسجد أحمد كتخدا العزب داخل القلعة (١٦٩٧) ، ومنزل زينب خاتون (١٧١٣) وسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا (١٧٤٤) وتكية وسبيل السلطان محمود بالحبانية (١٧٥٠) وسبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب (١٧٥٩) ، مسجد السيدة عائشه النبوية (١٧٦٢) ، جامع محمد أبو الذهب (١٧٧٤) والمسافرخانه بالجمالية (١٧٧٩/٨٠) ، وكالة الصنادقية (القرن ١٨) ومنزل ابراهيم كتخدا السناري بالسيدة زينب(١٧٩٤)، ومسجد زين العابدين (١٨٠٥) . والجدير بالذكر ونحن نتحدث عن أهم العمائر القاهرية في العصر العثماني أن نقرر بأن « السبيل الكتاب » قد لحقه التطور المعماري واللمسات الجميلة فأصبح بناء مستقلا له شخصيته وشيد على هذا النسق أسبلة شتى ، أهمها سبيل خسرو باشا (١٥٣٥) بالنحاسين وسبيل القزلار (١٦١٩) وسبيل حسين كتخدا وسبيل عبد الرحمن كتخدا . وفي أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استدارت واجهة السبيل ، واشتملت على تقويسات تعلو شبابيك السبيل وصارت له قاعدة تلتف حوله بدرجات من الرخام ..

العلماء والمؤرخون في العصر العثماني

وطبيعي أن يضمحل شان الأدب والشعر والعلم في ذلك العصر — بعد ما أصبحت القاهرة عاصمة ولاية تتبع حكومة القسطنطينية بعد أن حظيت قرونا طويلة واحدة من المدائن الكبرى في العالم الإسلامي ، ومع ذلك والحق يقال، تقابلنا كوكبة جليلة في ظل العثمانيين (١٥١٧ — ١٨٠٥) تضم علماء الدين

الأجلاء والشعراء ، والكتاب والعلماء وأصحاب السير والمؤرخين(١) .

شيوخ الأزهر

* لم يكن للجامع الأزهر شيخ يتولى رياسته الدينية أو يدير شئونه الادارية، بل كان يتولاه الولاية العامة بسلاطين مصر وأمراؤها ويباشر أعماله الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ومشايخ الأروقة .. ولما استولى العثمانيون على مصر ، ساروا على نهج من سبقهم حتى عينت الدولة العلية قبيل نهاية القرن السابع عشر « شيخ عموم » يدير شئونه ويراقب أموره ، ويلقب بشيخ الجامع الأزهر ،وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الخرشي أول من ولى هذا المنصب الخطير (ت ١٦٩٠) ، وجاء من بعده البرباوى فالشيخ النشرتى (ت١٧٠٩) والشيخ البلقينى(ت١٧١١) والشيخ شنن (ت ١٧٢٠) والشيخ الفيومى (ت ١٧٢٤) ، والشيخ عبد الله الشبراوى (ت١٧٥٧) والشيخ محمد الحفنى (ت١٧٦٧)، فالسجينى ،فالدمنهورى، فالعروسى (ت ١٧٩٤) فالشيخ عبد الله الشرقاوى (ت ١٨١٢) .

* ومن مشاهير شعراء العصر العثمانى عبدالله الشبراوى،وعبد الله الادكاوى، ومحمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى (١٧٢٧ — ١٧٦٦) ، وقاسم ابن عطاء الله المصرى (ت ١٢٠٤) ، والمحمدى السبربائى (١٧٩٥م) ،والظهورى واسماعيل الظهورى (ت ١٧٩٦) والشاعر اسماعيل الخشاب (ت ١٨١٥) الذى خصه العلامة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى بصفحات طوال عنه وصديقه الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ — ١٨٣٥) وقد تولى مشيخة الأزهر فى أيام محمد على باشا — وقد عرف العطار بمؤلفاته الكثيرة وخاصة حواشيه على كتب النحو والبلاغة ، كما امتاز بقراءاته الواسعة العميقة .

---

(١) محمد سيد كيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، دار القومية العربية القاهرة عام ١٩٦٥ .

* ومن مشاهير الكتاب فى العصر العثمانى بمصر — أحمد بن محمد الملقب بشهاب الدين الخفاجى السرياقوسى (ت ١٦٥٩ م) ، وكان والده على جانب من الثراء فاستطاع الشهاب أن يتفرغ للدرس ، وقد طبعت له كثير من مآثره فى الشعر ومنها « شفاء الغليل فى كلام العرب من الدخيل » ، والشاعر مرعى بن يوسف الحلى (ت ٣٤/١٦٣٣) ، والأديب عبد البر الفيومى (١٦٦٢ م) ، وعبد القادر البغدادى (ت ١٦٨٢) وغير هؤلاء كثيرون . ومن علماء هذ العصر أيضا : داود الأنطاكى (ت ١٥٩٩) الذى اشتهر من مؤلفاته : نزهة الأذهان فى طب الأبدان ، وتذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب (تذكرة داود) وغيرها ، والعلامة محمد مرتضى الزبيدى (١٧٣٢ — ١٧٩١) الذى ولد بزبيد فى اليمن ثم جاء إلى مصر بعد أن اجتمع بعلماء مكة وقد أورد الشيخ الجبرتى ترجمة حياته ، كما ذكر له شعرا كثيرا ولما مات بالطاعون كان قد انتهى من شرح القاموس المحيط كما شرح إحياء علوم الدين .

* أما مؤرخو هذا العصر فهم قليلون : نذكر منهم على بن نور الدين الحلبى (ت ١٦٤٤) صاحب السيرة النبوية ، وعبد الباقى الإسحقى (ت ١٦٥٠) وله كتاب اسمه « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » . ومحمد بن محمد بن أبى السرور البكرى (ت ١٦٦٧) وهو صاحب مؤلفات كثيرة منها : « النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » و « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » وغيرها مما اعتمد عليها شيخنا الجبرتى . وهناك أيضا أحمد الدمرداش كتخدا عزبان صاحب كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، وزميله ابراهيم مصطفى صاحب كتاب تاريخ وقائع مصر القاهرة .

ويتوج هذه الأسماء الجليلة ، اسم المؤرخ الكبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى يقف عملاقا بين زملائه من مؤرخى عصره ، فهو يتميز عليهم كثيرا بالنسبة لدقته وموضوعيته التى تفيض بالحياة الدافقة ، فضلا عن أن الشيخ الجبرتى تناول

فى موسوعته عصور ثلاث : مصر العثمانية ، والحملة الفرنسية ، وظهور محمد على . ولذلك فسنتحدث عنه فى الصفحات المقبلة(١) .

الأسبلة والحمامات

وفى ذلك العصر نشط بناء الأسبلة والحمامات فى أحياء المدينة كما لحق ببناء السبيل بعض التطور المعمارى . فقد كان السبيل إلى أواخر القرن الخامس عشر يلحق بإحدى المدارس أو يشغل ركنا من أركان المسجد أو الدار باستثناء نادر ولكنه فى العصر العثمانى استقل وحده . وأقدم الأسبلة العثمانية . . سبيل وكتاب الوالى خسرو باشا الذى بنى عام ٩٤٢ هـ (١٥٣٥) بالنحاسين ، ثم سبيل يوسف الكردى بدرب الجمان ، فسبيل الأمير محمد (١٦٠٥) ، فسبيل وكتاب القزلار بالسيوف (١٦١٩) ، فسبيل مصطفى سنان بسوق السلاح (حوالى سنة ١٦٣٠). فسبيل مصطفى طباطباى (١٦٣٧) . وقد وصل عدد هذه الأسبلة العثمانية قرابة المائة فكانت من أهم عوامل تجميل القاهرة ، ويمكن الوقوف عليها فى صفحات الجزء الأول من الخطط التوفيقية . . فمجالنا لا يفسح للمزيد . . . .

* أما الحمامات العامة التى تناثرت فى أحياء القاهرة العثمانية ، فيمكن التعرف عليها فى كتاب وصف مصر وقد بلغ عددها بين الثمانين والمائة ومع ذلك فإن العلامة جومار الذى كتب الدراسة الخاصة بالحمامات أكد أن القوائم التى عملت لم تقدم سوى ٩١ حماما فقط.ومع ذلك فإن خريطة القاهرة الملحقة بوصف مصر لم يظهر فيها سوى ٦٩ حماما فقط . يضاف إليها ثلاثة حمامات ذكرها جومار بعد ذلك

---

(١) لمزيد من القراءة يراجع ما كتبه عنه السادة المؤرخون فى ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المنعقدة بين ١٦ و ٢٣ أبريل ١٩٧٤ . وقد بلغ عدد البحوث التى ألقيت ثلاثين بحثا ودراسة عن الجبرتى .

بين الحمامات الفخمة وبذلك يصل العدد إلى ٧٢ حماما(١) ،وقد لاحظ العلامة أندريه ريمون في دراسته الرائعة عن القاهرة العثمانية — وجود مناطق في المدينة تتركز فيها الحمامات بدرجة ملحوظة . كمنطقة القصبة وهي الشريان التجاري الكبير الذي يخترق القاهرة،وكمنطقة القلعة حيث مقر الفرق العسكرية،والاسواق الكبرى ، والأحياء المحيطة بجامع ابن طولون .

كما يلاحظ وجود مناطق تكاد تكون محرومة من الحمامات وهي المناطق الواقعة عند تخوم المدينة حيث كان معظم سكانها من الفقراء وكان من أهم تلك الحمامات : حمام العربي ، وحمام البابا ، وحمام البارودية في باب الخرق ، وحمام بشتاك للرجال ، وحمام الدرب الأحمر ، وحمام الدود بشارع محمد علي ، وحمام المقاصيص ، وحمام المؤيد (للسيدات) ، وحمام النحاسين أو حمام قلاوون الذي ذكره المقريزي باسم حمام الساباط (جـ ٢ ص ٨٠)، وحمام الصليبة (للسيدات)، وحمام الشرايبي الذي شيده التاجر الثري محمد دادا الشرايبي قبل عام ١٧٢٥ وكانت له وكالة باسمه ، ومن أهم تلك الحمامات : حمام سوق السلاح وربما كان هو الحمام الذي بناه مصطفى باشا (١٥٦٠ - ١٥٦٣) ، وحمام الطنبلي البالغ الضخامة والخاص بالرجال وقد كتب عنه الفنان باسكال كوست وصفا ضافيا . . . وغير ذلك كثير، وكثير ومع ذلك فلم يبق منها سوى القليل ..

---

(١) د . أندريه ريمون وترجمة زهير الشايب : فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية — كتاب روزاليوسف ص ١١٥ ـــ ١٦١ عام ١٩٧٤ .

القاهرة فى أيام الحملة الفرنسية

(١٧٩٨ — ١٨٠١)

وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر ولم تبق فيها زمنا طويلا ، فإن مدتها لم تزد على ثلاث سنين (١٧٩٨ - ١٨٠١) ومع ذلك فقد تهدم كثير من أحياء القاهرة وخططها ، وفارقها كثير من أهلها ، وقد أسهب عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ فى شرح حوادث تلك المدة باسهاب ، فمن يرغب الوقوف عليها ، فليراجع مادونه هذا العلامة . وسنوجز ما أصاب القاهرة فى أعقاب دخول الفرنسيين إليها .

دخل الفرنسيون القاهرة ثانى يوم هزيمة الأمراء المماليك فى معركة إمبابة (٢١ يوليو ١٧٩٨) ، فسكن بونابرت دار محمد الألفى بالأزبكية ، وسكن كل قائد فرنسى فى دار من دور أمراء المماليك ثم رتبوا مجلسا من العلماء ، فاطمأن الناس لذلك وعاد كثيرون إلى دورهم ، وبعد قليل أخذ الجنود الفرنسيون فى تفتيش البيوت وأخذ ما يجدونه وألزموا التجار بدفع خمسمائة ألف ريال فرنسى ، ثم ضربوا مبلغا على كل حرفة ، فحصل بذلك للفقراء أشد المضايقة . ثم اتسع نطاق الفتن خارج القاهرة وداخلها ، وتوالى طلب النقود من البلاد فعجز الناس لاسيما أهل القاهرة ، فقاوموا وتجمعوا فى حى بين القصرين وعملوا المتاريس فى بعض الحارات وحصل بينهم وبين الفرنسيين مناوشات شديدة ، فكانت المدافع من القلعة تضرب على الجهات المجاورة وعلى الأزهر ، فتخربت الدور وتشتت كثير من الناس أو ماتوا . وهاج سكان القاهرة هياجا شديدا فى جميع الأحياء ، ولذلك أقام الفرنسيون حصونا فوق التلال المحيطة بالقاهرة وفى مصر القديمة وشبرا والجيزة ووضعوا بها المدافع ونشطوا فى جمع الأسلحة من الأهالى ، وأخلوا بيوت الأزبكية من أهلها ، وأسكنوا بها رجالهم ومن انتمى إليهم .

ثم شغل الفرنسيون بمحاربة حملة حربية عثمانية قدمت لاخراج الفرنسيين ، فغادروا القاهرة وأخلوا القلاع لكن لم يظفر العثمانيون . فلم يدخلوا القاهرة فاتحين بل دخلها بعض جنودهم واشتغلوا بالنهب ، فتدارك الأمراء المماليك الأمر فحصل الاتفاق على خروج العثمانيين وإقامتهم خارج القاهرة .

ولم يهدأ الحال طويلا فقد عزم أهالى القاهرة على أن تكون لهم الكلمة فى طرد الفرنسيين من مدينتهم ، واستؤنفت أعمال الحرب مدة سبعة وثلاثين يوما خرب فيها خط الأزبكية وخط الفوالة وخط الرويعى إلى حارة النصارى وخربت معظم حارات بولاق أيضا من الحرق والهدم وجهة بركة الرطل وباب البحر . وانتهت هذه المقاومة بفرض مبلغ مليونين من الريالات الفرنسية على الأهالى ، فحصلوا لهم غاية الضيق فى تحصيلها وأهانوا المشايخ والأعيان وضرب الشيخ السادات وحبس وأخذت منه أموال جمة ونهبت دور شتى وصودر كثير منها .

وفى خلال ذلك سافر بونابرت واستخلف على القيادة الجنرال كليبر فاغتاله سليمان الحلبى فى حديقة مقر القيادة بالأزبكية ، فاشتد غيظ الفرنسيين وحقدوا على أهل مصر فرأوا إحراق المدينة ، لولا أنهم قبضوا على الحلبى فقتلوه . وقتلوا معه بعض ممن اتهموا بمعاونته . وبعد أشهر تم الصلح وخرج الفرنسيون من مصر (١٨٠١) ، ثم جاء العثمانيون واستقروا بها . . إلى أن تولى محمد على ولاية مصر عام ١٨٠٥ .

كانت القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر تتألف من ثلاث مناطق سكنية متفرقة عن بعضها ويفصلها الخرائب أو الأراضى الزراعية ، وتلك المناطق هى — مدينة القاهرة ، وضاحية بولاق ، ومصر القديمة . وكان يربط القاهرة بضاحية بولاق طريقان : الطريق الشمالية وهى تجارية تنتهى عند باب الحديد

ومكانها الآن شارع الفجالة وكان طريقا متعرجا . أما الطريق الثانية فتصل ضاحية بولاق بالقاهرة عند ركن الأزبكية مارة بمسجد أبى العلاء فالأزبكية ، ثم تصل إلى القلعة وقد عنى الفرنسيون بهذه الطريق فأقاموا جسرا عريضا يتناسب مع أعمالهم العسكرية. وكان يربط القاهرة بضاحية مصر القديمة ـ الخليج المصرى وكان عرضه عشرة أمتار تقريبا ، كذلك يربطها شارع المعز لدين الله بمصر القديمة وكانت تحف هذا الشارع الرئيسى الاسواق الكبيرة والصغيرة . أما المقابر فكانت مبعثرة فى داخل المدينة بالقرب من دور الأحياء ، كما كانت فى شمالها الشرقى أو فى جنوبها .

اهتم نابليون بونابرت أثناء إقامته بمصر بسن لوائح لتنظيم إقامة المبانى وفتح الشوارع وتنظيف الأحياء ورشها وإنارتها ، ثم أنشأ بعض الميادين والشوارع لخدمة الأغراض الحربية وتسهيل نقل الجنود وعتادهم ، كميدان الأزبكية والفجالة وشارع بولاق ، كما أنه أزال بعض البوابات القديمة التى كانت تقسم المدينة إلى عدة نواح وأحياء ، وذلك لتيسير إدارة المدينة وتدبير أحوالها .

خريطة القاهرة

ولكى يسيطر العسكريون على القاهرة ويتيسر لقواتهم التحرك فيها ، كان لا بد لهم أن يستر شدوا عند كتابة تعليمات القادة وأوامرهم للجند أن تكون لديهم الخرائط الموضحة التى تيسر لهم مهامهم . لم يكن فى أيديهم شىء من هذا القبيل ولذلك بدىء العمل بسرعة فى رسم خريطة للاسكندرية وأخرى للقطر المصرى ، وثالثة لمدينة القاهرة . وقد بدأ ضباط المساحة العسكرية والمهندسون فى تقسيم المدينة إلى أجزاء وقامت كل جماعة منهم برسم الجزء الخاص بها وهكذا نهض جاكوتين Jacotine وجماعته بجمع المعلومات الخاصة بخريطة لضواحى القاهرة ،

فى حين نهض رئيس الجماعات وهو Jesteviude باعداد رسم خريطة مصر بعد أن حدد مقياس رسمها . . وفى منتصف أكتوبر عام ١٧٩٨ كان العمل فى خريطة القاهرة على وشك الانتهاء . فقد كانت المنافسة شديدة جدا بين المهندسين المدنيين منهم والعسكريين فى سبيل انجاز تلك الخرائط . وموجز القول أصبحت للقاهرة فى نهاية عام ١٧٩٨ خريطة واضحة عليها جميع المعالم الطبوغرافية المقيدة وأصبحت أساسا فيما بعد لجميع الخرائط التى رسمت للقاهرة وغيرها من المدن الرئيسية ، ومازالت هذه الخريطة تقدم المعلومات الوفيرة لمؤرخى القاهرة منذ العصور الوسطى حتى نهايه القرن التاسع عشر .

* المجمع العلمى المصرى

ولم يكد يفرغ القائد بونابرت من انتصاره على المماليك فى معركة إمبابة ، حتى أصدر قرارا فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ بانشاء أول مجمع علمى فى القاهرة Institut d'Egypte ، هكذا اسماه واختير العلامة مونج Monge رئيسا له ، وبونابرت نائب رئيس ، وفوريه Fourier سكرتيرا مدى الحياة . وكان هذا المجمع العلمى المصرى يضم على غرار شقيقه الأول — مجمع فرنسا العلمى (Institut Egyptien) أربعة أقسام : (١) قسم الرياضيات (٢) قسم الطبيعة (٣) قسم الاقتصاد السياسى (٤) قسم الآداب والفنون الجميلة . وكان الباعث على اقامة هذا المجمع (١) العمل على تقدم نور العلم فى مصر ونشره فى أنحائها ، (٢) بحث ودراسة ونشر أحداث مصر التاريخية ومرافقها الصناعية وعواملها الطبيعية. وبعد ثلاثة أيام من تأليف هيئة هذا المجمع عقدت جلسته الأولى فى بيت حسن كاشف أحد أمراء المماليك بحى الناصرية وقد مرت بهذا المجمع حوادث كثيرة عقب رحيل الفرنسيين حتى دبت الحياة إلى المجمع المصرى فى ٦ مايو سنة ١٨٥٩ فى مدينة الاسكندرية تحت اسم Institut Egyptien بفضل والى مصر محمد سعيد . وفى غضون سنة ١٨٨٠ انتقل المجمع المصرى

إلى القاهرة ، ومنذ ذلك الحين وهو ينهض برسالته العلمية العالمية بفضل سبعين عضوا عاملا وخمسين عضوا منتسبا فى الخارج . والجدير بالذكر أن للمجمع مكتبة تعتبر من أغنى مكتبات مصر العلمية .

موسوعة وصف مصر

ومن أهم منجزات علماء الحملة الفرنسية – الذين رافقوا القادة العسكريين أثناء الأعوام الثلاثة القاسية كتـــابة الموسوعة الضخمة عن مصر المعروفة Description d'Egypte — وصف مصر . فهى تعتبر بحق أول موسوعة بالفرنسية عن مصر فى القرن التاسع عشر تناولت أحوال البلاد فى دراسات لنواحيها المختلفة بالاضافة إلى مئات الصور والرسوم والخرائط . وتعتبر إلى اليوم بين المراجع القيمة فى شئون مصر وفى الوقت نفسه شهادة تقدير للعلماء والفنانين الفرنسيين[1] .

---

(١) ممايثلج الصدور أن نهض الأستاذ زهير الشايب بترجمة هذه الموسوعة الى اللغة العربية خلال النصف الثانى من القرن العشرين دون أن يعنى أحد بترجمتها منذ عام ١٨٢٥. فاليه الشكر والثناء وقد فاز بجائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة .

القاهرة فى القرن التاسع عشر

فى أيام محمد على وخلفائه (١٨٠٥ — ١٨٥٥)

تدهورت القاهرة وآل إليها الإهمال فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ثم دمرها الفرنسيون فى ثلاث سنوات . إن ما بقى من آثار دور الأمراء والحكام ومساجدهم ومدارسهم ، صار مساكن للمحتاجين والمشعوذين ، ومعاطن للدباغ وملقى للأوساخ . ولقد أحاطت التلال بالقاهرة وعوضا عما كان بالقرافة م مساجد وأضرحة وقصور ، وبالفسطاط من مدارس وديارات ، أصبحت معظمها خاوية على عروشها . . لاترى إلا خرابا ممتدا اينما قصدت وبركا آسنة يتصاعد منها ما يزكم الأنوف ؟

لم يكن بالقاهرة حينذاك سوى ميدانين : ميدان الأزبكية فى غرب القاهرة وميدان قره ميدان فى جنوبها تحت القلعة ، وكانت قد خربت جميع الميادين والرحاب التى تتكلم عنها المقريزى وكان عددها تسعة وأربعين ، فمنذ صارت مصر ولاية عثمانية ، احتكر الناس أرض البساتين والميادين والرحاب وشيدوا فيها . ثم لما كثرت الفتن وتوالت المحن والمجاعات صارت المدينة الجميلة تلالا من الخرائب والأنقاض !

وفى عام ١٨٠٥ تقلد محمد على حكم ولاية مصر ، فقضى على منافسيه وأدرك أن حالة القاهرة أصبحت لا تليق بمجد البلاد وشهرتها التليدة . فوجه عناية حكومته إلى إزالة الدور الخربة ، والقضاء على الخرائب التى تشوه العاصمة ، فصدرت الأوامر فى سنة ١٨١٥/١٦ باعداد حملة من المهندسين للكشف على

دور القاهرة ، فإن وجدوا بها خللا أمروا باصلاحه أو هدمه . وذكر الجبرتي ضمن حوادث شهر ذى القعدة عام ١٢٣١ هـ — ١٦/١٨١٥ ، أن الباشا أطلق المنادين في شوارع القاهرة وأحيائها ، وندب جماعة من المهندسين وملاحظي المباني للكشف على الدور والمساكن فإن وجدوا بها خللا أمروا صاحبها بهدمها وتعميرها ، فإن كان يعجز عن ذلك يؤمر باخلائها حتى يعاد بناؤها على نفقة الحكومة وتكون من أملاك الدولة وكان سبب هذا الأمر سقوط بعض الدور وموت الناس تحت أنقاضها(١) .

ثم اتجه نشاط الحكومة إلى إزالة الكيمان من القاهرة وغرس الأشجار ، وكان ذلك فى عام ١٨٢٩ فأزيلت الكيمان المجاورة للقصر العالى (جاردن سق) والمعروفة بكوم العقارب وكان مسطحها تسعة أفدنة فأزيلت فى قرابة عام، وكذلك أزيلت التلال الكائنة بين حى الناصرية وجاردن سيتى ومساحتها ٣٨ فدانا وغرست بأشجار الزيتون وغيرها(٢) وكذلك أزيلت الأكمة التى كانت تسد الطريق إلى شبرا بجوار قنطرة الليمون وحولت إلى منتزه(٣) .

أرادت الحكومة أن تعجل بعمران القاهره وأن تتخلص من خرائبها ، فصدر قرار بتعمير أراضى الخرائب ، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة ، وذلك فى عام ١٨٣١ بعد احصائها(٤) .

وفى عام ١٨٣٧ صدر نون بمعاينة المساكن الآيلة إلى السقوط ، وازالتها

(١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٥٣ .

(٢) تقويم النيل جـ ٢ ص ٥٣٢ .

(٣) الوقائع المصرية رقم ١١٤ (٢ رمضان سنة ١٣٤٥) .

(٤) وثيقة رقم ٨٦ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٤٧ ، ووثيقة ١٩١ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٤٧ .

مع الجيشان والدرر المتخربة المستعملة كمستودعات للقاذورات والتنبيه على أصحابها ببنائها مساكن، وذلك فى ظرف ثلاثين يوما، وإلا عرض العقار للبيع، فإن لم يتقدم مشتر اشترته الحكومة، وإن كان تابعا لوقف تنبه على ناظره بالبناء، فإن لم يستطع يصير استبداله.

وفى عام ١٨٤٦ استعجل الأمر الصادر بتوسيع أزقة وفتح شوارع الموسكى، وقطع كوم سلامة، وشوارع بولاق وفم الخليج والقلعة(١).

وكان الباشا قد أصدر أمره فى ٨ ذى الحجة سنة ١٢٥٩ هـ - ديسمبر ١٨٤٣ بإنشاء مجلس للاشراف على تزيين وتجميل القاهرة وتعديل طرقها أسوة بما استحدث بالأسكندرية، وكان المجلس مؤلفا من رشيد أفندى مفتش الأبنية الأميرية، ولينان دى بلفون مهندس القناطر، والمهندس مصطفى بهجت رئيس قلم الهندسة بديوان المدارس(٢). وفى ١٢٦٤ هـ - ١٨٤٧ ورد ذكر مجلس تنظيم « المحروسة » فى الأمر الصادر بترقيم الدور وتسمية شوارع القاهرة.

وفى العام المذكور (١٨٤٧) شرع فى توسعة الشارع من باب الحديد إلى الظاهر، والمتصل بطريق السويس، وأجرى توسيع شوارع درب الجماميز وباب الخلق، والمشهد الحسينى، ثم غرست الأشجار فى الطرقات، ومهدت طريق متسعة بين مصر وشبرا غرست على جانبيه أشجار الجميز واللبخ وكان من أجمل شوارع القاهره المؤدية إلى قصر محمد على بشبرا. وردمت بركة الأزبكية تمهيدا لتحويلها إلى منتزه عام(١) وثم غرست الأشجار على حافتى طريق الرميلة وقره ميدان تحت القلعة.

---

(١) الوقائع المصرية.

(٢) دفتر ٢٠٩١ ورقة ١٤ ديوان المدارس.

(٣) الوقائع المصرية رقم ٨٩ فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٦٤.

وكان القائد ابراهيم يعاون أبيه وذلك لكي تسمو القاهرة إلى المستوى اللائق بعاصمة البلاد ، ولذلك قدم مساعدته إلى مهندسه مسيو « بونفور » لازالة أكوام الأنقاض الواقعة بين النيل وبولاق ومصر والفسطاط وطلب إليه إنشاء متنزهات خاصة مكانها فتجلت الرياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة . واختفت تلال حي الناصرية وفي أحياء الظاهر والفجالة وكانت تلقى الأنقاض وتطرحها في البرك المجاورة لاسيما في بركتي الرطل والطبالة وغيرها حتى تخلصت منها القاهرة وحلت محلها البساتين والمزارع ، وجففت أكثر البرك والمستنقعات التي كان الفيضان وعدم العناية يحولانها إلى مستنقعات تتولد فيها الجراثيم .

وقبل وفاة محمد على بثلاث سنوات ، كان قد أمر بفتح شارع السكة الجديدة وكان ذلك في عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ واشتريت الأملاك التي تقابل الشارع في مروره ، وعمل له رسم بقلم الهندسة التابع لديوان المدارس . وفي زمن ابنه عباس الأول استمر العمل في فتح الطريق إلى أن وصل إلى شارع النحاسين . وفي زمن الخديوى اسماعيل امتد إلى جهة الغريب وزيدت عليه الأرصفة على جانبيه في أيام ابنه توفيق .

بولاق

والجدير بالذكر أن طريقا بين القاهرة وضاحيتها بولاق أنشئت في أيام محمد على . وكان الفرنسيون قد بدءوها وفي بولاق تمت ضاحية صناعية جديدة فيها المسابك والمصانع وقامت منطقة مثلها تعرف اليوم بالسبتية .

وفيما بين بولاق وشبرا على ساحل النيل أقيمت الورش الكبرى والمطبعة الأميرية ودار الصناعة الكبرى والمباني الحكومية وحظيرة واسعة أطلق عليها اسم « المبيضة » وكانت تبيض فيها الأقمشة بالأساليب المستحدثة ، وأنشىء مصنع للجوخ على شاطىء النيل أمتاز بجودة سلعه . وأزيلت أنقاض بولاق مما تبقى منذ أيام الحملة الفرنسية وحولت إلى حي صناعي راق . فقامت فيه المصانع والمخازن

ومساكن المهندسين ومدرسة صناعية. وقد وصف رحالتان أحدهما بريطاني وهو « تيلور » (١٨٣٩) وثانيهما فرنسي اسمه كومب (١٨٤٧) ماطرأ على بولاق من النشاط العجيب الذي كان معدوما في نهاية القرن الثامن عشر ، بل وأوائل القرن التاسع عشر .

بركة الفيل وجزيرة الروضة

هذا ما كان في وسط القاهرة وشمالها ، فكيف تطورت المدينة في جنوبها ؟

عاد العمران إلى جزيرة الروضة حينما أخذ ابراهيم باشا وبعض الأمراء والحكام يشيدون قصورهم ويعنون ببساتينهم . ففي جنوب الجزيرة شيد قصر حسن المناسترلي بالقرب من مقياس النيل ، ولا تزال قطعة منه هناك . وفي الجهة البحرية أقيم البستان العظيم الذي أنشأه القائد ابراهيم للنزهة وكان الناس يترددون عليه في أيام الأعياد وشم النسيم وقد احتوى على الأشجار المنوعة المجلوبة من الشرق الأقصى وعلى أنواع الحيوان والطيور كما كان به خلجان تجري فيها المياه . وعلى الجانب الشرقي للجزيرة كانت قصور الأمراء وبساتينهم ، منها قصر سليم باشا الجزائرلي ، وبستان المندورة وأرض السيدة البارودية ، وأراضي حسن باشا يكن ، وقصر وحدائق علي باشا شريف ، وقصر وحديقة ذي الفقار باشا ، ثم قصر وبستان الخديوي اسماعيل ، والطريق الموصلة إلى مسجد قايتباي بوسط الجزيرة تفصل هذا القصر عن قصر والدة عباس الأول . أما الشاطيء الغربي للجزيرة المقابل لمدينة الجيزة يليه من الجهة الجنوبية قصر أمين باشا يليه أرض حسين يكن باشا ثم أراضي علي شريف باشا ، فأرض للخديو اسماعيل ثم مثلها للفريق أحمد المنكلي باشا . . وغيرها .

وفي طرف الجزيرة (الروضة) أقيم معمل للبارود بعيدا عن المساكن وتولى ادارته الفرنسي « بارتلا » .

بركة الفيل

كذلك كان الحال فى بركة الفيل ، فقد أمر محمد على أن تردم فجىء لها بالأتربة من التلال القريبة والأنقاض المجاورة وغرس على حافتها الأشجار وشيد بالقرب منها قصران عظيمان عرفا بقصر الحلمية ودرب الجماميز ، وبنى أتباعه الدور الفخمة وأصبح سكان حى بركة الفيل من صفوة القوم ومعظمهم من الأتراك .

وكانت أهم جوامع هذا العصر — الجديدة : مسجد محمد على الذى اختار له أجمل بقعة فى القاهرة وهى القلعة وقد بدأ عمارته سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ ، كما جددت فى أيامه مساجد أخرى كمسجد عمرو بن العاص ومسجد السيدة زينب .

هكذا اتسعت القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فى اتجاه الشمال إلى شبرا وفى اتجاه الغرب إلى بولاق التى أصبحت ثغر القاهرة فى الشمال. وامتدت بل زاد عمرانها فى القلب (حى بركة الفيل والصليبة) وفى الجنوب (مصر القديمة وجزيرة الروضة) . ولعل أهم ما لحق بالقاهرة فى تلك السنين إزالة الخرائب والانقاض التى شوهت المدينة الخالدة سنين طويلة .

نهضة التعليم

شاهدت القاهرة فى أيام محمد على نهضة علمية رفيعة وأدرك أن لابد من سباق نشيط مع الزمن ليعوض مافات على البلاد ، وسرعان ما نظم ديوان المدارس ليستعين به الوالى على وضع نظم التعليم وإنشاء المدارس وبرامج التعليم وكان على رأسه موظف مستنير كفء اسمه مصطفى مختار بك وأصبح مسيطرا على جميع المعاهد العسكرية والمدنية ومديراً على المصانع والمشافى والمؤسسات التى استجدت. والجدير بالذكر أنه كان لكل مدرسة مجلس التعليم والتنظيم يجتمع أعضاؤه

مرات كثيرة أثناء الشهر ثم يقدم تقريرا عن أعماله خلال كل شهر لديوان المدارس ، وكانت جميع المعاهد تتبع النظم العسكرية . فى عام ١٨١٥ افتتحت مدرسة الهندسة والمساحة . وفى عام ١٨٢٤ افتتحت مدرسة الموسيقى ثم افتتحت المدرسة الحربية (١٨٢٥) فى قصر العينى ، ونقلت فيما بعد (١٨٣٢) إلى أبى زعبل . وفى عام ١٨٢٧ افتتحت مدرسة الطب والصيدلة (١٨٢٧) فى أبى زعبل وكان الطبيب كلوت بك فى الواقع محركها الدائم ومسيرها على الأسلوب الفرنسى ، وفى عام ١٨٣٧ انتقلت إلى القاهرة فى قصر العينى وبعد عام افتتحت مدرسة أخرى للطب فى الإسكندرية وكانت مدة الدراسة خمس سنوات . وفى عام ١٨٣٢ افتتحت مدرسة المشاة للجيش بالخانقاة ، ثم نقلت بعد عامين إلى دمياط ، وفى ١٨٤٢ عادت إلى القاهرة . وفى عام ١٨٣١ أنشئت مدرسة للفرسان بالجيزة كما افتتحت فى السنة نفسها مدرسة المدفعية فى طره . أما المدرسة البحرية فقد أنشئت برأس التين فى الإسكندرية لتكون قريبة من دار الصناعة (الترسانة) والميناء التى دب فيها النشاط البحرى . وأنشئت مدرسة للطب البيطرى عام ١٨٣١ بأبى زعبل ثم أغلقت بعد أشهر لتفتتح مرة أخرى عام ١٨٣٧ .

أما مدرسة الزراعة فقد نهضت عام ١٨٣٦ وافتتحت مدرسة المهندسين العليا عام ١٨٣٤ وغرضها امداد القوات المسلحة بالمهندسين العسكريين الأكفاء ، كذلك افتتحت مدرسة للغات (الألسن) عام ١٨٣٦ وكانت تدرس فيها اللغات الفارسية والعربية والتركية والفرنسية وكان من أهم أهدافها تخريج مترجمين يضطلعون بترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية — وبالإضافة إلى إنشاء تلك المعاهد الخاصة كانت هناك مدارس التعليم العام وكان التعليم فى جميع هذه المدارس بالمجان وفى بعض الاحيان كان يتلقى التلاميذ المصروفات والملابس علاوة على الغذاء .

البعثات للخارج

واتجه نشاط محمد على بهمة إلى إيفاد البعثات الكبرى إلى البلدان الأوربية للتخصص فى جميع العلوم والفنون والصناعات، واقتباس النظم الحديثة التى يصلح استخدامها فى المدارس المصرية .

الطباعة الحديثة فى بولاق

وأسست فى مصر أول دار للطباعة العربية تجاور مصنعا لصناعة الورق يمد المطبعة بما تحتاج إليه، ومسبك لسبك الحروف العربية بأشكالها المتنوعة .وتحولت منطقتا بولاق والسبتية إلى منطقة صناعية فيها مسابك الحديد ومصانع الأقمشة المتنوعة وورش النجارة والحدادة . . الخ .

الأزهر فى بولاق

رأينا محمد على ورجاله ينهضون بمعاهد العلوم الحديثة وينشئونها لتوا كب مصر شعوب العالم فى العلم والمعرفة، فماذا كان نصيب الأزهر من تلك العناية ؟ الواقع أنه كان فى مقدمة أعمال محمد على وهو يبحث عن مصادر الأموال التى ينفق منها على مشروعاته الطامحة — أن أحصيت جميع الرزق والأوقاف المرصدة على المساجد وأعمال الخير، الكائنة بالقطر، وأوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم وأضرحتهم، وفرضت عليها الأموال الباهظة (سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢م)، فاحتج المشايخ على ذلك وحاولوا عبثاً مخاطبة الباشافى إلغاء قراره (١) وكان لذلك أثره فى اقتطاع موارد الأزهر، وفى التضييق على الأساتذة والطلاب،

---

(١) الجبرتى عجائب الآثار ج ٤ ص ١٥١ و١٦٤ — تاريخ الجامع الأزهر الدكتور =

يقول الدكتور فولرز Vollers فى دراسته عن الأزهر فى دائرة المعارف الإسلامية لم يتردد محمد على فى أن يصادر الأراضى الموقوفة على الأزهر ، وهى واسعة الرقعة بالرغم من أنها موقوفة عليه ، وبذلك أوقع أضراراً بليغة بالأساتذة والطلاب ، ويلاحظ العلامة المستشرق Edward Lane فيقول :

أنه قد نزعت ملكية الأراضى التى كانت مملوكة للأزهر وقل عدد الطلبة الذين ينتمون إلى الأروقة قلة ظاهرة(٢) .

وبقى الأزهر طيلة قرابة خمسين سنة شبه معزول عن النهضة العلمية وانكمش نفوذه القديم انكماشا واضحا ، لكنه أخذ منذ عصر اسماعيل حفيد محمد على يتأثر بتيار الحركة الاصلاحية المنبثقة وينفض عنه غبار الركود ، وحدث فى ذلك العصر حادث كان له أثر عميق فى مضاعفة وعى الأزهر — ذلك هو مقدم العلامة والمصلح الكبير السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ واتصاله بالأزهر وطلابه(٣) .

رحالة وعلماء أوربيون

اجتذبت القاهرة فى أيام محمد على نفرا من الأجانب الذين قدموا إلى مصر لخدمتها أو لمشاهدة ما سمعوه عنها فى أعقاب حوادث الحملة الفرنسية فى مصر . ونذكر من هؤلاء القائد سليمان الفرنساوى (Colonel Seves) الذى أخذ على

محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ — الطبعة الثانية ص ٢٢٩ .

(٢) E. Lane : Manners and Customs of Modern Egyptians (Everyman ed.). p. 21.

(٣) محمد عبد الله عنان : المصدر السابق ص ٢٥٢ .

مانقه تنظيم الجيش المصرى الحديث وتدريبـــه على النمط الأوربى ، والطبيب الفرنسى كلوت بك الذى يرجع اليه الفضل فى ادخال الطب الحديث كما عرفته أوربا فى ذلك الحين . عاش الاثنان فى القاهرة معيشة المواطنين وامتزجا بهم وقدما أجل الخدمات للمصريين .

وفى أوائل سنى حكم محمد على وفد على الإسكندرية (١٨٠٦) الأديب الفرنسى شاتوبريان ، وبعد أيام قضاها فيها ورشيد قصد القاهرة وفى اليوم التالى لوصوله طلب السياح له بمقابلة الوالى بقصر الجوهرة بالقلعة وكان الباشا غائبا فناب فى استقباله أحد أبنائه الأمراء . وزار شاتوبريان جزيرة الروضة والأهرام وسقاره وميدان معركة الأهرام . وبعد عشرة أعوام من زيارة شاتوبريان مر بمصر فى أواخر عام ١٨١٧ الكونت دى فوربان (de Forbin) .وقد وصف فى كتابه مدينة القاهرة وصفا سريعا عقب زيارة بعض مساجدها ووكالاتها وحماماتها وأسواق الرقيق وقد ابتاع صبية جركسية رائعة الجمال دفع لصاحبها سته آلاف من الجنيهات . وجاء بعده طائفة من الرسامين المشهورين وعلماء الآثار وفى طليعتهم شامبوليون الكبير مكتشف اللغة المصرية القديمة ، والمؤرخ جوزيف ميشو (١٨٣٠) وجماعة « سينت سيمون(١٨٣٣—١٨٣٦)» وقاموا بعدة دراسات فى طليعتها قناة السويس والقناطر الخيرية . ولا ننسى أن نذكر المهندس الفنان «بريس دافن» (Prisse d'Avenness) الفرنسى الذى عمل بالتدريس فى بعض المعاهد الخاصة وقدم عدة مشروعات هندسية للحكومة. وقد عشق بريس دافن العمارة العربية ، ويشهد بذلك كتابه النفيس فى العمارة العربية ولا يزال إلى اليوم مرجعا ملهما .

تنتقل بعد ذلك إلى شخصية نادرة أحبت مصر والمصريين لا سيما القاهرة وشعبها ، عشق هذه المدينة حينا كانت مرآة صادقة لمدينة تشع منها ألوان الفنون والتقاليد الإسلامية الأصيلة . كانت رحلته الأولى إلى مصر (١٨٢٥—١٨٢٨)، فوصل القاهرة فى اليوم الثانى من أكتوبر ١٨٢٥ وألقى مركبه مرساه فى بولاق ميناء القاهرة ومضى مع زملائه إلى المدينة ليقيم بمنزل القنصل البريطانى. أعجبته القاهرة وعزم على أن يتخصص فى الكتابة عن أحوال أهلها وعاداتهم بعد أن يتعلم العربية عن أساتذة كبار — لكنه اضطر إلى السفر إلى موطنه لوضع تدابير رحلته الثانية إلى مصر (١٨٣٣ — ١٨٣٥) ، ومع جده ونشاطه و مثابرته أصبح ادوارد لين عالما ملما بالعربية، ومن هنا نهض بدواساته بتؤدة وكان يعاونه على ذلك خلقه الحميد ومسلكه مع للمصريين أثناء إقامته بينهم . سافر علامتنا إلى وطنه ليعود ثانية ليمضى رحلته الثالثة (١٨٤٢ — ١٨٤٩) وفى أثناء تلك الرحلات الثلاث التى قضى معظم سنينها فى القاهرة(١) اتم علامتنا ادوارد وليم لين المؤلفات الآتية :

١ — وصف مصر Description of Egypt وهو مخطوط يصف مصر من سنة ١٨٢٥ — إلى ١٨٢٨ .

٢ — المصريون المحدثون — عاداتهم وشمائلهم ، ١٨٣٦ —
An account of the Manners and Customs of Modern Egyptians

٣ — ألف ليلة وليلة — صدر أولا فى أجزاء شهرية ١٨٣٨ — ١٨٤٠
The Thouthand and One Nights.

---

(١) عدلى طاهر نور : المستشرق الكبير ادوارد وليم لين — حياته ومؤلفاته — القاهرة ١٩٧٣ .

٤ — مختارات من القرآن - ١٨٤٣ .Selection from the Koran

٥ — القاموس — ١٨٦٣ .An Arabic English Lexicon

٦ — المجتمع العربي في العصر الوسيط — ١٨٣٣

Arabian Society in the Middle Ages.

٧ — القاهرة منذ خمسين عاما — ١٨٩٦ (بعد وفاته) أخرجه العلامة المستشرق ستانلي لين بول .

وفي عام ١٨٤٩ ، وهي السنة التي توفي فيها محمد على الكبير — كان إدوارد لين قد أتم رحلته الثالثة في وطنه الثاني مصر — وكانت حصيلتها اتمامه الجزء الثالث من قاموسه الكبير — وفي العام نفسه كان العلامة الأثري البريطاني سيرجون جاردنر ولكنسون قد كتب دراسة عن العمارة في مصر القديمة . وتشاء الصدف أن يزور مصر في عـــام ١٨٤٩ — الأديب والروائي الفرنسي Jestave Flaubert والسيدة فلورنس نايتنجيل بطلة حرب القرم المعروفة ، وتشارلس سبيك Charles Speke رائد منابع النيل ومؤلف كتاب « منابع نهر النيل » ، وأوجست ماريتAuguste Mariette قبل تعيينة أمينا لقسم الآثار المصرية في متحف اللوفر وقبل كشفه معبدسرابيس ومقابر عجول أبيس .. إلخ.

• حركة التعريب

والجدير بالذكر أن حركة الترجمة إلى اللغة العربية ، والتأليف والنشر ، نشطت في أيام محمد على بفضل بعض العلماء العباقرة ، أمثال الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي بعد عودته من فرنسا ، وقيامه بشتى أعمال الكتابة والترجمة بالاضافة

إلى التدريس فى مدرسة الألسن(١) وتأليفه طائفة من الكتب العلمية فى شتى الميادين ، لاسيما الوسائل الحربية وكتب الطب والفنون الحديثة .

صدور الوقائع المصرية

وفى أيام محمد على صدرت أول جريدة عربية فى القاهرة بالمعنى الفنى المعروف هى الوقائع المصرية وقد أنشئت بمعونة الأستاذ رفاعة الطهطاوى (ت ١٨٧٣) وكانت تصدر أولا بالتركية والعربية ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب ، كالشيخ حسن العطار ، والسيد شهاب ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان . .

---

(١) د. محمد خلف الله أحمد : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها (١). الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ، ١٩٦١ .

القاهرة فى أيام الخديوى اسماعيل

(١٨٦٠ — ١٨٨٠)

تولى اسماعيل (١٨٦٣) حكم مصر فى أعقاب وفاة عمه سعيد ، فواصل سياسة جده محمد على فى العناية بعمران القاهرة . ولذلك أمر بازالة ما بقى فى شمالها من تلال الأنقاض وبردم مالم يردم من البرك الآسنة وتنظيف شوارع الأحياء لاسيما فى حى قلعة الكبش جنوب الصليبة والسيدة زينب كما أمر بتعميم الكنس والرش .

تخطيط القاهرة الحديثة

لما عاد الخديوى اسماعيل من باريس عام ١٨٦٧ ، قرر أن يجعل بستان الأزبكية (وكان قبل ذلك بركة ردمها محمد على) على شاكلة حدائق باريس ، ومن ثم أصبحت من أبهج المنتزهات وبلغت مساحته ثمانية عشر فدانا تضيئها الأنوار وتزينها النافورات وتتلوى فيه البحيرات وقد احتفل بافتتاح الحديقة فى عام ١٨٧٢ .

ومنذ ذلك الحين أصبح ميدان الأزبكية مركزا للأحياء الجديدة التى خططت ، فأوصله بحى الموسكى شرقا ثم اتجه إلى غربية فأزيل ما كان يعرف بباب الجنينة ، وخط إلى جنوبه بميل فى اتجاه الغرب — الأحياء الجميلة التى تعرف اليوم بأحياء التوفيقية والاسماعيلية وعابدين بعد أن أقام فى طرف الأزبكية الجنوبى مسرحين فخمين هما المسرح الجديد ودار الأوبرا (١٨٦٩) .

واختط فى تلك الأحياء الطرق العريضة الظليلة التى ماذالت من أهم مسالك القاهرة ، منها شارع عبد العزيز وشارع قصر النيل وشارع سراى الاسماعيلية غربا وغيرها .

أما فى جنوب القاهرة، فخطت طرق جديدة ، وامتحت دروب وأزقة كثيرة، فاتصلت أحياء السيدة زينب بحى عابدين ، وأنشىء الميدان الفسيح أمام قصر عابدين الذى أنشىء ليكون مقرا للحكم بدل قصر الجوهرة بالقلعة .

الاسماعيلية والمنيرة والمبتديان

كان يشغل حى الاسماعيلية والانشاء ، أراضى اللوق وميدانى الصالح نجم الدين أيوب ، والناصر محمد بن قلاوون وبستان الفاضل ، وقد بلغ العمران فى تلك المنطقة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ذروته وكماله ، لاسيما بعد أن تم حفر الخليج الناصرى ، فكان على حافتيه من أوله عند قصر العينى إلى منية السيرج كثير من قصور الأمراء والأعيان فى أيام المماليك ثم خربت وتحولت إلى كثبان أتربة وبرك مياه وأراض سبخة . وفى السبعينات من القرن التاسع عشر صارت على قول على باشا مبارك: «من أبهج خطط القاهرة وأعمرها» وأنشئت فيها الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة ، ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر ، ونظمت على جوانبها الأفاريز ، ومدت فى أرضها أنابيب المياه ، وأقيمت عليها عمد المصابيح الغازية ، وسكن الاسماعيلية الأمراء والأعيان ومنهم : حسين باشا الدرمللى ، وأحمد باشا خيرى ومحمود باشا الفلكى ، وعمر باشا لطفى وغيرهم . وقد بلغت مساحة الاسماعيلية ٣٥٩ فدانا .

ويمكن تلخيص أهم أعمال الاصلاح التى تمت فى القاهرة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر فيما يلى :

• تحويل مجرى النيل

كان المجرى الرئيسى يمر فى الجهة الغربية محاذيا لشارع الدقى الحالى مارا ببولاق الدكرور وامبابه ، بينما كان الفرع الشرقى أو النيل الحالى عبارة عن سيالة ضيقة تنحسر عنها المياه أكثر فصول السنة لارتفاع منسوب قاعها وكان السقاؤون

ينقلون المياه منها إلى أحياء القاهرة ، فكانت سببا فى انتشار كثير من الأمراض كما كانت تلك السيالة فى نفس الوقت موطنا للبعوض . فلما تولى الخديوى اسماعيل حكم مصر سنة (١٨٦٣) وضع فى مقدمة مشروعاته الاصلاحية لتعمير مدينة القاهرة مشروع تحويل مجرى النيل الأصلى من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية محاذيا لمدينة القاهرة .

بدأ ديوان الهندسة بإجراء عملية التحويل باقامة جسر فى النيل فى أواخر سنة ١٨٦٣ يبدأ من مدينة الجيزة ويمتد إلى امبابه وقد تمت العملية فى سنة ١٨٦ وأخذ النيل يسير فى مجراه الحالى ، وبذلك تم أول مشروع حيوى كان له أكبر أثر فى اتساع القاهرة وتحديد ساحلى النيل بجسرين قويين .

حى الزمالك ووصل شاطىء النيل

نتج عن تحول مجرى النيل الرئيسى من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية أن تسلط تيار النهر على الجزء الجنوبى من الجزيرة الكبيرة وكان ساحلها الجنوبى قريب الاتصال من جزيرة الروضة — كذلك أثر فى الساحل الشرقى للجزيرة فتآكل جزء كبير منه عند توسيع مجراه خصوصا فى المنطقة المواجهة لحى بولاق وكان الشاطىء البحرى للجزيرة ينتهى عند شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول) حيث تبدأ المنطقة المعروفة حاليا باسم الزمالك، ولم يكن موجود بها فى ذلك الوقت سوى قصر للنزهة أنشأه محمد على مكان نادى الضباط الحالى .

وعند مدخل القاهرة فى شمالها (ميدان رمسيس اليوم) خططت من جديد منطقة الفجالة وكانت مزارع وبرك ترويها مياه الفيضان ونهض حى الفجالة والسكاكينى وخط فيه الشوارع وبنيت القصور وأصبح من أجمل أحياء القاهرة. وأصبحت منطقة عابدين — قلب القاهرة بعد بناء قصر عابدين وردمت برك الفرانين ثم بركة السقايين وبركة الفوالة ، وبركة الناصرية .

وفى غرب القاهرة شيدت القصور وقامت حديقة الأورمان ، ثم أنشئت حديقة الحيوان . وفى جنوب القاهرة عنى بدراسة منطقة حلوان تمهيدا لاقامة مدينة للاستشفاء ، وقد تحقق ذلك فى أيام الخديوى توفيق .

أما الشوارع الجديدة التى امتدت بالاضافة إلى ما ذكرناه منها : فشارع محمد على (القلعة الآن) وشارع كلوت بك تمجيدا لانشائه الطب الحديث وشارع الفجالة ، وشارع عبد العزيز ، وشارع السكة الجديدة ، وشارع الخليج المصرى بعد ردم الخليج (١٨٩٦) وشارع العباسية وشارع الهرم الذى أنشىء فى الأصل عام ١٨٦٩ لايصال منطقة الأهرام بالجيزة بقلب القاهرة ، واستجدت ميادين شتى كميدان باب الحديد والخازندرا وعابدين ، ميدان باب اللوق وميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) .

ولعل أهم من ذلك كله ، تيسير ايصال القاهرة بموانىء البلاد الشمالية والشرقية فبعد أن كان النقل البرى عبر الصحراء أو المائى عن طريق فرعى النيل والترع المتفرعة فتطورت الحياة الاقتصادية للقاهرة . ووفر الوسائل السريعة لحركة السياحة وقد نتج هذا التغيير عن تنفيذ الوسائل الآتية :

ففى عام ١٨٥٤ : تم إنشاء الخط الحديدى الذى يربط الاسكندرية بالقاهرة
وفى عام ١٨٥٦ : تم إنشاء الخط الحديدى الذى يصل بين السويس والقاهرة
وفيما بين ١٨٥٩/١٨٦٩ : تم مشروع شق قناة السويس .

وفى عام ١٨٦٥ : أنشئت شركة مياه القاهرة لامداد الأهالى بما يلزمهم من الماء .

وفى عام ١٨٧٣ منحت شركة الغاز امتياز لاضاءة القاهرة ، ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الفنادق يزداد فى القاهرة — فنادق سياحية من الطراز الحديث . . وأنشئت فى القاهرة مسارح حديثة ، من أهمها مسرح الكوميدى فرانسيز

وكان موقعه مكان دار البريد الحالية فى شارع طاهر واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير ١٨٦٨ وفى عام ١٨٦٩ افتتحت دار الأوبرا وبلغت تكاليفها ١٦٠٫٠٠٠ من الجنيهات ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ أول أوبرا اسمها « ريجوليتو » وطلب اسماعيل من الموسيقى الايطالى Verdi فردى أن يضع أول أوبرا تمثل فى دار الأوبرا ، فوضع العلامة الفرنسى « ماريت » موضوع أوبرا « عايده » ولحنها فردى ومثلت فى دار الأوبرا المصرية المرة الأولى فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ فنالت أعظم النجاح .

• رحالة وأدباء

وفى أيام اسماعيل زار القاهرة طائفة من الكتاب والفنانين والعلماء المرموقين، منهم Gerard de Nerval وفلوبير ومكسيم دوكام، وماريلا وكرابيليه Crapelet وفى خلال ١٨٦٣ — ١٨٦٧ شاهد الفرنسيون لوحات جيروم Gerome الثلاثة وهى الأسيرة ، وتاجر الرقيق ، وتاجر الملابس كما انتهى الفنان بيدا Beda لوحة مذبحة المماليك .

كما زار الأديب الفرنسى الكبير تيوفيل جوتييه Theophile Jautier مصر وأقام بفندق شبرد حينما وصل إلى القاهره وبدأ تجولاته وبحوثه فى أنحاء القاهرة فتجول فى شوارعها وحاراتها ودخل حماماتها وبعض قصورها ودورها ثم انتقل إلى الريف المصرى ينشد هدوءه كما أنه زار آثار مصر فى الصعيد . وزار القاهره أيضا الكاتب الفرنسى إدمون أبوت Edmond Abbot وكتب مؤلفه « أحمد الفلاح » فاكتسب الشهرة .

• تأليف الكتب العامه والتعليم

ونشطت فى القاهرة حركة تأليف مرموقة فى العلوم الحديثة بفضل طائفة من الشبان المصريين الذين كانوا أوفدوا فى بعثات علمية إلى مختلف البلاد الأوربية،

فى فنون الطب والصيدلة ، برع ابراهيم النبراوى (ت ١٠٦٢) وأحمد حسن الرشيدى (١٨٣٥) والدكتور محمد على البقلى (ت ١٨٧٦) ، وأحمد ندى (١٨٧٧) وسالم باشا سالم (ت ١٨٩٣) ، ومحمد الدرى باشا (١٩٠٠) وحسن محمود باشا (ت ١٩٠٣). وممن نبغ فى العلوم الفلكية والرياضية : محمد بك بيومى (١٨٥١) ، وبهجت باشا (١٨٦٧) ، ومحمود باشا الفلكى (١١٨٥) ، وشفيق بك منصور (١/٩٠) ومحمد مختار باشا (١٨٩٧) ، واسماعيل الفلكى (ت ١٩٠١) . واشتهر بعد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى (١٨٢٥) ، الشيخ رفاعة بك رافع الطهطاوى (١٨٧٣) رافع نبراس العلم والتعليم ، ومحمد قدرى باشا (١٨٨٥) ، والشيخ حسين المرصفى (١٨٨٩) والمهندس على مبارك باشا (١٨٩٣) ، وعثمان بك جلال (١٨٩٨) ، وأمين فكرى باشا (١٨٩٩) ، ومن بعدهم كثير من اللامعين المصريين .

بقى أن نتكلم عما آل إليه التعليم الحديث فى مصر عامة ، والقاهرة خاصة ، وتتمثل خطة التطور العلمية فى القانون الأساسى الذى صدر فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ و ١٨٦٨ ميلادية ، فقد كان يهدف لتجديد ما اندرس فى المدارس بعد وفاة محمد على ، لتكون فى أحسن تنظيم ، ويقصد القانون بالكتاتيب القديمة (المدارس الصغرى) المنتشرة فى أنحاء مصر لتعليم القراءة والكتابة والقرآن الكريم بالزوايا والمساجد وبيوت الفقهاء ونص القانون الجديد على اغلاق الكتاتيب التى لا تتوافر فيها الوسائل الصحية ، كما نص على تعديل منهج الدراسة باضافة مادة الحساب وأنشئت فى ديوان المدارس منذ عام ١٨٧٢ إدارة خاصة تشرف على هذا النوع من التعليم ، كذلك نظم القانون ، فنص على إنشاء مدرسة ابتدائية فى كل مديرية (محافظة) على أن يدخلها الجميع دون تمييز وجعل مدة الدراسة أربع سنوات ينتقل التلاميذ الممتازين بعدها إلى المدارس — التجهيزية ، وفى تلك المدارس وضعت برامج التعليم المتقدمة وتعليم اللغات . واتجهت عناية

الدولة إلى تعليم البنات أسوة بالبنين، ففتحت أول الأمر مدرسة للبنات فى السيوفية وتبعها بأخرى فى حى القربية . . وأدركت الحكومة ما يحتاج إليه هذا التوسع من توفير المال وزيادة عدد المدرسين، فدبرت لذلك جميع الحلول الممكنه فأوفدت البعثات تباعا إلى أوروبا وأنشأت دار العلوم لتخريج مدرسى اللغة العربية والدين وتأهيل مدرسين لتدريس المواد الاجتماعية والمواد الرياضية والطبيعية ، وأنشئت دار الكتب لجمع المؤلفات القديمة وتعويض الناس على حب المطالعة ، ووسعت المطبعة الأميرية ببولاق لطبع الكتب للتلاميذ ، وازداد عدد الصحف فى البلاد وكان منها ما يصدر باللغات الاجنبية . . هذا بالاضافة إلى فتح أبواب المدارس العالية المتخصصة كالطب والهندسة والزراعة والإدارة والقانون إلى جانب المعاهد العسكرية المتنوعة ، وبالإضافة إلى ذلك العناية بالتعليم الدينى فى الأزهر .

وأخذ التعليم الأجنبى الخاص ينتشر فى المدن الكبرى لاسيما القاهرة والاسكندرية وكانت تنشئها وتديرها الجاليات الأجنبية ، والارساليات الدينية وكانت تحظى بتشجيع الحكومة الأدبية والمادية . وكان فى طليعة تلك المدارس الأجنبية : مدارس الارساليات الدينية ، وأهمها مدارس الراهبات (الراعى الصالح مثلا) ومدارس الفرير التى انتشرت كثيراً فى القاهرة والاسكندرية والمديريات، ومنها كلية سان جوزيف بالخرنفش وكلية دى لاسال ، ومدارس الجزويت التى بدأت نشاطها فى مصر عام ١٨٧٩ بعد ما وافق على إنشائها السلطان العثمانى ، كذلك مدارس الليسيه التابعة للبعثة الدينية الفرنسية ، وفى أعقاب هذا النشاط أخذت المدارس الانجليزية تفتح أبوابها وكان أكثرها تابعا للارساليات الدينية . كمدارس الارساليات الاسكتلندية بالاسكندرية (١٨٥٦) للبنين ، والبنات ثم اتجه النشاط بعد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) إلى إنشاء كليات بريطانية بمقياس كبير ، فكانت كلية فكتوريا بالأسكندرية (١٩٠١) — فالمدرسة

الانجليزية بالقاهرة (١٩١٦)، فالكلية الأسقفية الانجليزية (١٩٢٤) أما النشاط الأمريكي التعليمي فبدأ منذ عام ١٨٥٥ بانشاء عدة مدارس عام (١٨٧٠ (كان عددها ١٢ مدرسة) وفي عام ١٨٩٧ بلغت فيه المدارس الأمريكية أقصى زيادتها ففيه وصل عدد المدارس ١٦٨ مدرسة وعدد تلاميذها ١١٠١٤ وعدد [مدرسيها ٧٢ مدرسا(١).

* * *

• الصحافة العربية

وفي أيام اسماعيل وثبت الصحافة وثبة ملحوظة، فأصدر المرحوم محمد على باشا البقلي الطبيب — مجلة اليعسوب وهي طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وفي عام١٨٦٦ ظهرت جريدة وادي النيل السياسية لأبي السعود أفندي وكانت تصدر مرتين في الأسبوع . وفي عام ١٨٦٩ أصدر الأديب ابراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة نزهة الأفكار وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاها الخديوي . وفي سنة ١٨٧٠ صدرت مجلة روضة المدارس وهي مجلة علمية أدبية قام بتحريرها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب ، ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦، فالوطن سنة ١٨٧٧، فجريدة مصر، فالمحروسة، لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠ وبعد الاحتلال البريطاني صدرت صحيفة المقطم (١٨٨٨)، ثم المؤيد للشيخ على يوسف .

* ومن أساطين الأدب في تلك الأيام : الشاعر محمود صفوت الساعاتي (ت ١٨٨٠)، والشيخ عبد الهادي الإبياري الشاعر المطبوع واللغوي النابة (ت ١٨٨٠) وقد عمل في الإفتاء، ثم العلامة الشيخ حسين المرصفي شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وخريج الأزهر (ت١٨٨٩)، ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا

---

(١) A. Watson : The American mission in Egypt. p. 144

فكرى ناظر المعارف فى أيام اسماعيل ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية (ت ١٨٨٩) ، والمصلح الكبير والموسوعى الفذ والعالم القدير على مبارك باشا الذى تقلب فى مناصب كثيرة إلى عهد توفيق (ت ١٨٩٣) ، والأديب الجرىء السيد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية (ت ١٨٩٦) والسيدة الفاضلة الشاعرة عائشة التيمورية وخلفت ديوانين (ت ١٩٠٢) والأستاذ الإمام محمد عبده الذى ترك آثارا فى الدين واللغة والأدب (ت ١٩٠٥) ، والكاتب المبدع صالح مجدى ، وعلى الليثى ، والشاعر الكبير ، رب السيف والقلم ، محمود سامى البارودى الذى عاصر المد والجزر فى الحياة المصرية طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وشاهد الإزدهار العمرانى والثقافى الذى حققته مصر ، وخاض معارك « كريت » و « البلقان » والقرم « وشارك فى الثورة العرابية ثم قضى عليه » بالنفى وأدركته المنية عام ١٩٠٤ .

القاهرة فى تطورها الحديث

(١٨٨٢ - ١٩٥٢)

فجر الثورة العرابية

كان يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١ يوما مشهودا فى تاريخ مصر الحديث ، ففى هذا اليوم تفجرت الثورة العرابية ضد الحكم الأجنبى . وفى هذا اليوم تحدى الشعب ويمثله القائد أحمد عرابى ، ظالميه ، ووقف القائد بسيفه المشهر على ظهر جواده فى مواجهة الخديوى محمد توفيق والقنصل البريطانى . . حدث ذلك أمام قصر الخديوى فى ميدان عابدين . . .

وكانت الخطة قد وضعت بحضور جميع آلايات الجيش الموجودة فى القاهرة إلى ميدان عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ « لعرض طلبات عادلة لابد منها لضمان حرية الأمة وسعادتها » . وفى الموعد المقرر فى الساعة الرابعة عصرا احتشدت وحدات الجيش فى ميدان عابدين وقد بلغ عدد الجنود أربعة آلاف جنديا ، كما احتشدت جماهير الشعب وامتلأت النوافذ والشرفات والشوارع المحيطة بالأهالى ليشاركوا قادة الثورة فى وقفتهم النبيلة . . ثم جاء أحمد عرابى ممتطيا جواده وشاهرا سيفه وخلفه قرابة ثلاثين ضابطا شاهرى السيوف .

وشاهد الخديوى تجمع الجنود فى الميدان ، وتوافد عليه الوزراء ثم وصل بعض قناصل الدول . . . ونزل الخديوى من القصر ومعه مستركوكس نائب قنصل بريطانيا وأوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى ، وسار حتى بلغ وسط الميدان ،فنادى عرابى وسأله عن سبب إحضاره الجيش،فأجاب القائد جئنا يامولاى

لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة كلها « ثم حدد له المطالب وأهمها : عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس للنواب ، وزيادة عدد الجيش ، فأنكر الخديوى على عرابى طلباته كلها وقال له .. وأنا ورثت ملك هذه البلاد من آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا فتحداه عرابى قائلا : لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا . فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لانورث بعد اليوم » . . .

وانتهى هذا اليوم بإذعان الخديوى ومعه قناصل الدول الأجنبية إلى مطالب العرابيين . . .

وفى صباح ١١ يولية سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الانجليزية مدافعها على حصون الاسكندرية ، فجاوبت الحصون باطلاق مدافعها . . ثم صمتت نيران الحصون بعد أن دك بعضها دكا... وأدرك القادة حرج الموقف فقرروا الانسحاب من الثغر إلى خط الدفاع الأول عند كفر الدوار . . . ثم عدلت الخطه ليكون الدفاع الرئيسى فى شرق الدلتا . .

ولم تعبأ الإمبراطورية البريطانية بحيدة قناة السويس . وسرعان ما احتلت قواتها بورسعيد والاسماعيلية (٢٢ أغسطس) . وبعد فوات الفرصة أعلنت الحكومة العثمانية عصيان عرابى وأيدت الخديو فى عرشه ، وكان هذا قد عزل عرابى من نظارة الحربية وأعتبره ثائرا . . .

وأخيرا انهزم أحمد عرابى فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخلت طلائع القوات البريطانية القاهرة فى اليوم الخامس عشر من سبتمبر ١٨٨٢ . . . وأسر القادة والزعماء وسرعان ما حوكموا ، وحكم على كثيرين منهم بالنفى بعيدا عن أرض الوطن . . ليس هذا فحسب . . بل وسرح الجيش المصرى . . . . . بأمر من الخديو !

المجتمع الثقافى

فى تلك الفترة لمعت أسماء كثيرة من الأدباء والشعراء والكتاب ، منهم ابراهيم المويلحى (١٢٦٢ — ١٣٢٣ هـ) صاحب الفرج بعد الشدة ، وما هنا لك بالإضافة إلى ما كتبه من المقالات فى الصحف والمجلات . والعلامة اللغوى حفنى ناصف (١٢٧٢ — ١٣٣٧ هـ) وهو شاعر أيضاً ومن آثاره « مميزات لغة العرب ، وحياة اللغة العربية ، وكتاب القطار السريع فى علم البديع » وأبنته الشاعرة ملك ناصف (باحثة البادية) (١٨٨٦ — ١٩١٨) ولها مكانة مرموقة فى العلم والأدب . لها مجموعة من المقالات كانت تكتبها فى صحيفة الجريدة ، ثم أصدرتها تحت عنوان النسائيات . والأديب المبدع مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦ — ١٩٢٤) وله عدة مؤلفات وترجمات ، منها : النظرات (٣ أجزاء) ، والعبرات وهو مجموعة من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة ، ومختارات المنفلوطى « وبول وفرجينى » وسيرانودى برجواك لأدمون رستان . . .

والعالم الأديب الشيخ عبد العزيز جاويش (ت ١٩٢٩) وقد ظهر فى الكتابة السياسية وكان أسلوبه خطابيا يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق(١) ومن مؤلفاته « غنية المؤدبين » ، والإسلام دين الفطرة فى الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه » ، وكتاب « أسرار القرآن » ، . . وله مئات المقالات التى كتبها فى صحيفة اللواء وكان رئيس تحريرها عقب وفاة الزعيم العظيم مصطفى كامل رحمه الله .

وفى هذا العصر لمع اسم اللغوى العلامة الأستاذ الشيخ حمزه فتح الله (١٨٤٩ — ١٩١٨) . مثل الحكومة المصرية فى عدة مؤتمرات — مرتان فى

---

(١) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى (الطبعة ١١) — مطبعة الرسالة ، القاهرة ص ٤٤٨ .

المؤتمر العلمي الشرقي (١٨٨٦ و ١٨٨٩) ثم زاول التعليم بمدرسة الألسن فدار العلوم، ثم أنتقل إلى التفتيش ، فمكث فيه إلى أن تقاعد (١٩١٢) . من مؤلفاته « المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية »(١) .

وجدير بالذكر أن ننوه باهمية الدور الذى قام به الزعيم مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى (١٨٧٤ — ١٩٠٨) وكان لأسلوبه البلاغى الوطنى أثر بين المثقفين وكان خطيبا طلق البديهة رائع المنطق وندى الصوت وهو صاحب العبارة الخلابة : بلادى ! بلادى! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى ، الك عقلى ولسانى ، الك لبى وجنانى ، فانت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر(٢) .

وفى طليعة الخطباء : الزعيم الخالد سعد زغلول (ت ١٩٢٧) يقول عنه العالم أحمد حسن الزيات : « لم ير التاريخ المصرى ، بل الشرقى ، قبل سعد خطيبا ، رفيع الصوت ، حافل البديهة ، دافع الحجة، رائع البيان ، حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر . . . إلخ

وفى شعراء تلك الفترة : إسماعيل صبرى باشا (١٨٥٤ — ١٩٢٣) وقد شب فى عهد اسماعيل ونال إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ . وتقاعد سنة ١٩٠٧ ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض ، وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للادباء .

والشاعر الفنان أحمد شوقى بك (ت ١٩٣٢) ابن القاهرة ، نشا بها ، ويكاد النقاد يجمعون على أن شوقى كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبى لم يظهر فيها شاعرموهوب يصل ما أنقطع من وحى

---

(١) المرجع السابق ذكره ، ص ٤٦٠ — ٤٦١

(٢) « « « ، ص ٤٦٩ — ٤٧٠

الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب . . عالج الشعر التمثيلي ، فنظم عدة روايات خلدها المسرح العربي . وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء ، وله غيره في الشعر كتاب « عظماء الإسلام » .

ومعاصره الجندي الشاعر « محمد حافظ ابراهيم » (حوالي ١٨٧٠ — ١٩٣٢) المولود في ديروط . التحق بالمدرسة الحربية ورقى ضابطا في الجيش وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية تحت قيادة كتشنر ، فبقى هناك زمنا ثم ألح في العودة إلى مصر ، وحوكم عسكريا مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩ ثم أحيل إلى الاستيداع ومنها إلى المعاش . ثم استدعى للعمل في دار الكتب المصرية (١٩١١) رئيسا للقسم الأدبي وظل في هذا المنصب حتى تقاعد ، ومحمد حافظ ابراهيم شاعر موهوب ، ويعتبر ثاني الخمسة الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر وتجددت على صنيعتهم بلاغة القصيد . وهؤلاء الخمسة هم البارودي ، وصبري ، وشوقي وحافظ وخليل مطران ، رحمهم الله .

* والشاعر الكاتب علي الجارم (١٨٨١ —١٩٤٦) الذي درس في الأزهر ودار العلوم وسافر في بعثة إلى بريطانيا واشتغل بعد عودته في التعليم حتى كان كبيرا لمفتشي اللغة العربية واختير عضوا في مجمع اللغة العربية . وقد ألتزم في شعره الصياغة القديمة التي أحياها البارودي وصقلها شوقي . وأستمر ينظم الشعر حتى وفاته .

والفيلسوف الكاتب محمد فريد وجدي (١٨٧٥ — ١٩٥٤) وزميله العالم الجليل طنطاوي جوهري الذي أثرى المكتبة العربية بأفكاره المتقدمة .

القاهرة تتنفس الصعداء

اتسعت حدود القاهرة عما كانت عليه فى بداية القرن التاسع عشر وأصبحت فى حاجة شديدة إلى شبكة مواصلات سريعة بدلا من اعتماد سكانها على دواب الحمل فى تنقلاتهم . ففى أغسطس عام ١٨٩٣ أعلنت الحكومة المصرية عن رغبتها فى أن تقوم شركة بمد خطوط للترام فى القاهرة، وسرعان ما صدق مجلس النظار على منح امتياز بإنشاء خطوط ترام كهربية لشركة بلجيكية وكان ذلك فى نوفمبر ١٨٩٤ . وقد تقرر أن يشتمل الامتياز على ثمانية خطوط تبدأ من ميدان العتبة الخضراء ، يتجه الخط الأول إلى القلعة، والثانى إلى بولاق، والثالث إلى باب اللوق فالناصرية ، والرابع إلى العباسية عن طريق الفجالة ، والخامس إلى مصر القديمة ، والسادس من فم الخليج إلى الروضة ثم ينتقل الركاب بزورق بخارى إلى الشاطىء الآخر ليستقلوا قطارا إلى الجيزة وهذا هو الخط السابع ، ويبدأ الثامن من ميدان قصر النيل ويسير موازيا للترعة الاسماعيلية إلى كوبرى الليمون (ميدان باب الحديد) . وفى ١٢ أغسطس عام ١٨٩٦ جرى احتفال رسمى بتسيير قطارات الترام فى ميدان العتبة الخضراء ، وكانت أجرة الركوب ستة مليمات للدرجة الأولى ، وأربعة مليمات للثانية .

ولما ردمت شركة الترام الخليج المصرى بموافقة الحكومة ، مدت خطا من السيدة زينب إلى غمرة وكان ذلك فى عام ١٩١ ،وفى صيف عام ١٩٠١ حصلت الشركة على امتياز بخط يمتد من الجيزه إلى الهرم ، كما حصلت فى شتاء عام ١٩٠٢ على امتياز آخر بخط يمتد من باب الحديد مارا على كوبرى شبرا ، ثم يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج وقد تم هذا الخط فى ١٩ مايو عام ١٩٠٨ سيرت الشركة قطاراتها من العتبة إلى الجيزة رأسا عن طريق كوبرى الملك الصالح وكوبرى عباس بعد أن تم إنشاؤهما . وفى عام ١٩١٢ سارت القطارات إلى الجيزة عن طريق الزمالك :

ومنذ اتسعت القاهرة أدرك القائمون بشئون المدينة أهمية تنفيذ مشروع المجارى بدلا من المصارف والخزانات التى كانت تقام تحت المنازل وكانت تنزع هذه الخزانات بطرق غير صحيحة بوساطة رجال شركة تأسست سنة ١٨٨٧ .

وبحث الأمر عدة سنوات، وفى عام ١٩١٦ استقدمت الحكومة المصرية مستر كاركيت جيمس المهندس لدراسة مشروع لمجارى القاهرة وعين مراقبا لمصلحة المجارى ، ثم بدىء فى تنفيذ المشروع عام ١٩٠٩ وانتهى منه فى يناير ١٩١٤ وتكلف حوالى مليونى جنيه .

ضواحى القاهرة الجديدة

١١ م الجديدة .

وأنشئت فى أوائل القرن العشرين ضواحى جديدة لمدينة القاهرة ، كانت (هيلوبوليس) . وهذه الضاحية تدين بإنشائها إلى رجل المال البلجيكى البارون إدوارد إمبان الذى أسس فى عام ١٩٠٥ شركة لإنشاء هذه الضاحية ، وفى ذلك العام شرع البارون إمبان Baron Empain فى مفاوضة الحكومة المصرية على شراء ستة آلاف فدان من أرض الصحراء بواقع جنيه للفدان الواحد،ثم ازدادت تلك المساحة فيما بعد إلى اثنى عشر ألف فدان أخرى ، وقد افتتحت الشركة أعمالها بإنشاء خط حديدى كهربى يبلغ طوله خمسة أميال بين شارع عماد الدين بالقاهرة وبين أملاكها بمصر الجديدة ، وفى نفس الوقت شرعت فى تشييد المبانى الجميلة على الطراز العربى وبناء فندق رحب عظيم .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى استعادت الشركة نشاطها ، فامتد عمران هيلوبوليس إلى قلب الصحراء وهى مازالت إلى اليوم تمتد وتتطور حتى أصبحت مدينه عظيمة يرجى، وا بالذكر أن القاهرة كانت تمتد شمالا إلى سنة ١٩٠٥ حتى

العباسية ، وكانت الثكنات العسكرية تؤلف معظم مبانيها . أما ضاحية عين شمس القديمة وتقع إلى غرب مصر الجديدة فقد تمت بطريقة عشوائية لاسيما بعد ما امتدت إليها السكة الحديدية من محطة كوبرى الليمون مارة بمنشية الصدر وكوبرى القبة وحمامات القبة والمطرية .

المعادى

وفى جنوب القاهرة حصلت شركة أراضى الدلتا المصرية عام ١٩٠٥ على امتياز تعمير ضاحية المعادى على ضفة النيل الشرقية وعلى بعد قرابة أربعة أميال من جنوب العاصمة . ولقد كان نجاح هذه الضاحية الجميلة سنة ١٩١٤ أقل مما قدر لها . أما فى خلال سنين الحرب العالمية الأولى وما بعدها إلى آخر عام ١٩٢٠ فلم تتأثر المدينة كثيرا . وفى عام ١٩٢٠ شيدت الشركة ناديا جميلا وحمامات للسباحة كما أعدت ملعبا للتنس وأراضى للعب الجولف مع حدائق فسيحة . وفى نهاية ١٩٢٧ كانت الشركة قد شيدت قرابة ١٦٠ دارا أغلبها من الفيلات ، وتشغل المعادى اليوم نحو أكثر من ١٢٠٠ فدان امتدت فيها المشافى والمساجد والمدارس علاوة على استقلالها بادارة محطات المياه وتوليد الكهرباء .

حدائق القبة

تألفت شركة حدائق القبة فى عام ١٩٠٨ لتعمير مساحة تقدر بقرابة مائة وعشرة أفدنة وتقسيمها ، وأنشأت تلك الشركة شارعا يخترق أراضيها عرضه ٦٦ قدما وجعلت الطرقات الآخذة منه بعرض ٤٠ر٣٣ر٢٦ قدما . ولقد انتعشت بسرعة أعمال البناء التى قامت بها الشركة أو الأفراد حتى اتصلت حدائق القبة بقلب القاهرة وأصبحت فى زمن ما تنافس المعادى فى هدوئها . وفيما عدا تلك الضواحى الثلاث امتد عمران القاهرة إلى أحياء العباسية الشرقية والغربية كما اتصلت فيما بعد ضواحى منشية الصدر وحمامات القبة والزيتون والمطرية والحلمية وعين شمس .

أصبحت القاهرة فى الثلث الأول من القرن العشرين تشغل مساحة تبلغ قرابة ٢٢٠٠٠ فدانا بعد ما كانت مساحتها لاتتجاوز ٣٤٠ فدانا فقط على أيام مؤسسيها .

شوارع حديثة

لقد ضمت ضواح سكنية أنيقة على الضفة الغربية للنيل وفى طليعتها حى الجزيرة وامتد فى شمالها حى الزمالك ، وقامت ضاحية الدقى ووصل العمران إلى إمبابه وإلى أراضى وزارة الأوقاف حتى بولاق الدكرور كما عمرت أيضا منطقة العجوزة وشقت شوارع جديدة ففى عام ١٩٢٦ فتح شارع الجيش (فاروق سابقا) ، فسهل اتصال قلب القاهرة بحى العباسية وشمالها ، وفتح شارع الأزهر بعرض ٢٦ مترا فأدى إلى تخفيف حركة الضغط المتزايدة فى شارع الموسكى .

وفى الثلاثينات بدأ توسيع شارع الخليج ليكون عرضه ٤٠ مترا — وهدمت من أجل ذلك الدور القديمة الآيلة السقوط ، كذلك وسع شارع الأهرام إلى أربعين مترا وأصبحت تتوسطه الأشجار الباسقة وشيدت على جانبيه الدور وبعض العمائر ، كما بنى نفق عند بدايته تمر عليه قطارات السكة الحديد إلى الوجه القبلى . أما شارع رمسيس (الملكة نازلى سابقا) وامتداده شارع الخليفة المأمون والذى يربط قلب القاهرة الحديثة بمصر الجديدة فقد أصبح شريان القاهرة الرئيسى .

وعلى جانبى شارع شبرا امتد العمران فى جهة الشرق وفى الغرب أيضا ، واكتظت الأحياء بالمساكن ، وارتبطت العباسية والإمام الشافعى . وازدحم شارع قصر العينى بالعمارات الكبيرة حتى منطقة فم الخليج ، كما نهض حى المنيل بين مستشفى جامعة القاهرة وحى الروضة واخترق شارع متوسط الاتساع ذلك الحى ومن أهم ما نذكره هنا ، بناء أكبر مستشفى حكومى عرفته البلاد ، ويعرف اليوم باسم مستشفى جامعة القاهرة .

وفيما بين الثلاثينات والأربعينات تطورت طرز البناء في القاهرة فبعد أن كنا نشاهد البيوت العظيمه « ذات طابق أرضى وطابقين أو ثلاثة »، أصبحت ذات عشرة أو عشرين طابقا تخترقها المصاعد السريعة وتجري في أنابيبها المياه الدافئة وأجهزة التدفئه ومن بعض العمائر الشاهقة عمارة بحرى بميدان التحرير (الاسماعيلية سابقا) ومثيلتها بميدان مصطفى كامل، وعمارة شركة التامين الايطالية وعمارة الايموبلياء وكثيرا من المبانى الحكومية كدار مصلحة التليفون ومصلحة الكيمياء، ودار القضاء العالى بشارع رمسيس، ودار البريد بميدان العتبة الخضراء وغيرها من مبانى النقابات والجمعيات العلمية .

وما كاد ينتصف هذا القرن حتى بلغت مساحة القاهرة قرابة ١٧٤ مليون متر مسطح أى حوالى ٤٢ ألف فدان، وعلى هذه المساحة يقوم ١٥٠٠٠ منزل يزيد ارتفاع الواحد عن خمسة طوابق و١٦٥٠٠٠ لا يزيد ارتفاعه عن أربعة طوابق ومساحة الأراضى الفضاء داخل القاهرة كافية لبناء ١٥٠٠٠٠ منزل أى حوالى عدد العمائر والمنازل الموجودة الآن، ويعادل مساحة الطرق ١٥٪ من مساحة القاهرة وحول الطرق ما يقرب من ٣٠٠٠٠٠٠ من الأراضى الخضراء فى الميادين والحدائق والمنتزهات وعلى نهر النيل عبر القاهرة عشرة كبارى تصل من المدينة وغربها بين إمبابة شمالا ومصر القديمة جنوبا . وأصبح للقاهرة ثلاثة مطارات تربطها بالخارج وهى مطارات القاهرة الدولى وألماظة وإمبابة ...

القاهرة بين ثورتين

٢٣ يولية ١٩٥٢ — ١٥ مايو ١٩٧١

أقسام القاهرة وأحياؤها

بعد ما اتسعت القاهرة اتساعا شاسعا ، وامتد عمرانها إلى غرب نهر النيل ملتحمة بالجيزة ، أصبح من الضرورى لتسيير الشؤون الإدارية والإشراف على جميع المرافق أن يعاد تقسيمها إلى سبعة أقسام أو أحياء ، وعلى كل حى كبير يعرف برئيس الحى يساعد محافظ القاهرة على إدارة حيه .

• حى شرق القاهرة : يتألف من أقسام المطرية والزيتون وحدائق القبة وقسم الشرابية الجديد (يضم شياخة الأميرية فصلا من قسم الساحل وشياخات العزب — الشرابية — الزاوية الحمراء — مهمشة فضلا من قسم شبرا)(١) ويقدر عدد سكان هذا الحى بمليون نسمة .

• حى غرب القاهرة : يتألف من أقسام الموسكى (مضافا إليه شياخات الرملى — درب مصطفى — النوبى — الجامع الأحمر) — وقسم الأزبكية وقسم بولاق وقسم قصر النيل ، وقسم عابدين ، يضاف إليه شياخات الحنفى، وشياخات باب البحر (الشعبى — سيدى مدين — درب الأقاعية فضلا من قسم باب الشعرية ويقدر عدد سكان غرب القاهرة قرابة ٧٠٠,٠٠٠ نسمة .

* حى وسط القاهرة : يتألف من قسم الوايلى (عدا شياخة الزعفران

---

(١) محافظة القاهرة : الدليل الإحصائى ١٩٧٢ / ١٩٧٣

وجزء من شياخة العباسية الشرقية) — قسم باب الشعرية (عدا شياخات الرملى — درب مصطفى — النوبى - الجامع الأزهر — الطهار — باب البحر — الشعبكى —) — قسم القاهرة — قسم الجمالية — قسم الدرب الأحمر — شياخة الفجالة (فصلا من قسم الأزبكية)

ويقدر عدد سكان حى وسط القاهرة ٧٠٠٠٠٠ نسمة .

• حى شمال القاهرة : يتألف من قسم شبرا (عدا شياخات العزب — الشرابية - الزاوية الحمراء - مهمشة) - قسم الساحل (عدا شياخة الأميرية) - قسم روض الفرج ، ويقدر عدد سكان حى شمال القاهرة ٧٠٠٠٠٠ نسمة .

• حى مصر الجديدة : يتألف من قسم مصر الجديدة — قسم النزهة — قسم مدينة نصر(١) شياخة الزعفران (فصلت من قسم الوايلى — وجزء من العباسية الشرقية) ويقدر عدد سكان هذا الحى ٢٤٢٠٠٠ نسمة .

• حى جنوب القاهرة : يتألف من قسم السيدة زينب (عدا شياخة الحنفى - الدرب الجديد — سنقر — السباعين — خيرت — الكبش وجزء من الانشاء — قسم الخليفة - قسم مصر القديمة . يقدر عدد سكان هذا الحى ٨٠٠٠٠٠ نسمة .

• حى حلوان : يتألف من قسم المعادى ، وقسم حلوان — ومنطقة التبين . يقدر على سكان الحى بقرابة ٣٦٠٠٠٠ نسمة .

وأصبحت القاهرة تضم قرابة ثمانية مليون نسمة .

---

(١) أنشىء قسم مدينة نصر بالقرار الوزارى رقم ١٠٦٣ لسنة ١٩٧٢ — مصدر هذه البيانات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء

الأعمال الكبرى

تمت بضعة أعمال كبرى بالقاهرة خلال الستينات وما بعدها ، كان فى طليعتها شق طريق يصل بين مصر الجديدة وحى الخليفة ، مخترقة منطقة السكنات القديمة ومقابر المماليك وحى الأزهر والقلعة ، والغرض الرئيسى تخفيف حركة المرور التى تضاعفت والتى تخترق قلب القاهرة عبر شارعى الخليفة المأمون ورمسيس .

وكان العمل الثانى طريق كورنيش النيل التى تصل بين شبرا البلد وحلوان مارة ببولاق وجاردن سيتى وقصر العينى أمام الروضة فمصر القديمة ، فالمعادى .

وكان العمل فى إقامة عدة كبارى جديدة عبر النيل ، منها كوبرى الجامعة ، وتجديد كوبرى الجيزة بإنشاء آخر جديد . وأهم من كليهما إقامة كوبرى ٦ أكتوبر (١٠ رمضان) وهو مشروع ضخم جدا ، وصل بين العجوزة والدقى من ناحية ، والزمالك وماسبيرو وميدان عبد المنعم رياض ، ويتفرع منه إلى شارع الجلاء ، فميدان رمسيس . وبالإضافة إلى ذلك إقامة عدة كبارى علوية فى الميادين الكبرى ، مثل كوبرى ميدان رمسيس ، وميدان باب اللوق وميدان التحرير .

بيوت الله

كان من الحيوى بعد أن اتسع عمران القاهرة وامتدت هذا الامتداد الشاسع أن تضيق مساجدها بالمصلين المؤمنين لاسيما بعد الستينات . أصبح عددها وإمكانياتها لا تتناسب مع إزدحام القاهرة بأهلها والمترددين عليها وخاصة أيام الجمعة وأثناء الأعياد الدينية . وقد صرح مرة السيد الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف[١] لمندوب صحيفة الأهرام قائلا : . . . فى مصر الآن حوالى ٣٠,٠٠٠ مسجد ،

١) صحيفة الأهرام : العدد الصادر يوم السبت الموافق أول مارس ١٩٧٥ .

منها ستة آلاف تقريبا تابعه لوزارة الأوقاف و٢٤ ألف مسجد أهلى . ولقد زاد عدد المساجد بعد عام ١٩٦٧ فى فترة الاستعداد للمعركة ، ولكن عدد المساجد رغم زيادته ما يزال أقل مما يجب . ولقد طلبنا من وزارة التخطيط إعداد دراسة حول احتياجات البلاد من المساجد ، وحسبت نصف متر مربع لكل مصل ، وإنتهت إلى أننا مازلنا نحتاج إلى عدد أكبر من المساجد يصل إلى ٣٠٪ من مساجد الصلاة الحالية . . . . .

وبعد مرور قرابة خمس سنوات على هذا القول ، تناول السيد الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف (صحيفة الأخبار فى ١٢ نوفمبر ١٩٧٩) فقال فضيلته فى حديث طويل لمندوب الصحيفة : « وبالإحصاء أتكلم . . فآخر إحصائية تقول أن فى البلاد نحوا من ثمانية وثلاثين ألف مسجد والذى يتبع الوزارة منها نحو ستة آلاف مسجد ، ومعنى هذا أن فى البلاد أثنين وثلاثين ألف مسجد أهلى تشرف عليها الجمعيات الدينية وأهل البر . . وقد تشارك وزارة الأوقاف بمعونة ضئيلة لبعضها على قدر حالها وضآله ميزانيتها . . .

والجدير بالذكر أن بالقاهرة وحدها قرابة ألف جامع ومسجد ، نصفها تقريبا يتبع وزارة الأوقاف(١) . .

مساجد القاهرة الجديدة

وزاده عدد مساجد القاهرة خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، فشيد مسجد الزمالك وأحتفل بإفتتاحة يوم عيد الأضحى عام ١٩٥٥ ويبدو فيه طابع العصر ، ومسجد أسد بن الفرات بالجيزة ، ومسجد الروضة بالمنيل (١٩٥٥) ومسجد

(١) كان هذا الرقم من المساجد عام ١٩٦٢ حوالى سبعمائة وخمسين فقط أى أنه زاد خلال ١٨ سنة قرابة ٢٥٠ مسجد .

رابعة العدوية بمدينة نصر ، ومسجد صلاح الدين بمئذنتيه الشاهقتين بالمنيل شرقى قنطرة الجامعة ، ومسجد عمر مكرم بميدان التحرير (١٩٥٨) وقد ألحقت به منظرة كبيرة ومكتبة ، ومسجد المقطم بمدينة المقطم ، ومسجد جمال عبد الناصر بكوبرى القبة ، ومسجد منشية البكرى ، ومسجد مؤسسة الزكاة بالمرج ومسجد السلطان قطز بمصر الجديدة ، ومسجد الأوقاف بالمعادى ، ومسجد حسين صدقى بالمعادى ، ومسجد طارق بن زياد بمدينة المهندسين (١٩٦٧) . ولعل أحدث مسجد فى القاهرة أقامته قيادة القوات الجوية وافتتحته رسميا فى اليوم الأول من شهر رمضان المبارك عام ١٣٩٠ . (١٩٧٩) حيث افتتحه السيد محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية وشهد حفل الافتتاح الفريق أول كمال حسنى على وزير الدفاع والفريق محمود شاكر عبد المنعم قائد القوات الجوية ، وعدد كبير من علماء الدين . .

والجدير بالذكر أنه سيفتتح أثناء عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠) جامع أولاد عنان الكبير الذى شيد عند ملتقى شارعى الجمهورية ورمسيس ويطل على ميدان رمسيس (محطة القاهرة للسكة الحديدية) وتحتضن هذا الجامع الكبير معهد مكتبة ومظلة لمشيعى الجنائز وعيادة جديده . وينتهى خلال عام ١٩٨١ جامع شاهق آخر عند بداية شارع أحمد لطفى السيد وبالقرب ، من كلية الطب (جامعة عين شمس) . . .

ماذا تحتويه قاهرة اليوم

أصبحت القاهرة أم الملايين ، كالمدائن الكبرى الأخرى ، تمتص كالاسفنج مئات الآلاف من النازحين عن القرى ، وقد ارتفع مستوى المعيشة فيها أسرع من ارتفاعه فى هبة البلاد عامة فقد كان سكان القاهرة فى عام ١٨٨٢ حوالى

٥٧٣ ألفا وسيربون على عشرة ملايين قبل عام ١٩٨٠ .

والمعروف أن الطبقة الوسطى هى العنصر السكانى الذى يسيطر على قاهرة اليوم، ومن صفوفها قام بناة المدينة فى شكلها الحاضر بمعاونة من قدموا إليها من أقصى الصعيد .

وصف دزموند ستيوارت(١) مدينة القاهرة فى كتاب طريف له قائلا : إن القاهرة كانت منذ مطلع القرن التاسع عشر عاصمة دولة حديثة ، وفى أية دولة حديثة مزيج من الحسنات إلى جانب السيئات . . ففى القاهرة على سبيل المثال وليس الحصر أكثر من ثلاثين محكمة من مستويات منوعة ، فيها ستمائة وخمسون قاضيا ومستشارا ، وثلاثة سجون قد يهدم واحد منها قريبا(٢) فيه ثمانية آلاف سجين ، وخمسة وستون مستشفى فيها قرابة ١٤٠٣٢ سريرا ، وما يزيد على الألف ومائة شرطى .

فى القاهرة آلاف المطاعم الشعبية الصغيرة فيها عشرون مطعما أنيقا على النيل تقصدها الضيوف العرب أثناء الصيف ومطاعم القاهرة ، وخاصة المطاعم فى الفنادق العصرية تقدم الطعام على الطريقة الغربية والشرقية أحيانا . وفى القاهرة ما يقرب من الستة آلاف مقهى وقد قل عددها فى السنوات الأخيرة ذلك لأن أصحاب الدور والعمارات يفضلون الآن إقامة جراج للسيارات بدلا من الحوانيت والمقاهى . وفى المدينة أثنتان وتسعين دارا للسينما وفى القاهرة صناعة سينمائية جيدة . ومع أن المسرح وجد فى مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر فى أيام اسماعيل إذا تناسينا ما أقيم أثناء الحملة الفرنسية بحى الأزبكية ، ففى القاهرة — اليوم ما لايقل عن ثمانى عشر فرقة مسرحية وأربعة عشر مسرحا للعرض ويزداد

---

(١) القاهرة — ترجمة يحيى حقى ، كتب المقدمة د . جمال حمدان — كتاب الهلال رقم ٢١٦ — مارس ١٩٦٩ .

(٢) هدم السجن وغرست حديقة فى مكانه (١٩٦٠)

عدد المسارح باستمرار فى القاهرة ، وفى الاسكندرية وبالمصايف . وبها أيضا معاهد للفن المسرحى والسينمائى ، كما توجد معاهد للموسيقى والغناء والعرائس . إلى جانب فرقتى سيرك نكبت احداها بحريق منذ سنوات .وكان هناك إلى عهد قريب دار أوبرا فخمة أنشأها الخديو اسماعيل عام ١٨٦٩ حينما افتتحت قناة السويس ولكن اشتعلت فيها النيران إهمالا منذ أعوام (١٩٧١) والجهود قائمة كما يكتب فى الصحف لبناء دار جديدة .

والبوم

والقاهرة مركز للاشعاع العلمى والثقافى ويشرف على نشاطها هذا عدة مجالس متخصصة منها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والأكاديمية العلمية ، ومجمع البحوث الدينية التابع للازهر ،والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، وعدد عظيم من الجمعيات العلمية وعلى رأسها :الجمعية الجغرافية المصرية التى احتفلت منذأربعةأعوام بعيدها المئوى (١٨٧٥ــ١٩٧٥) والجمعية التاريخية (١٩٤٧) والمجمع العلمى المصرى الذى أنشأه بونابرت (١٧٩٨) ومجمع اللغة العربية وجمعية الآثار القبطية والمجمع الثقافى المصرى ، وجمعية محبي الفنون الجميلة ، وجمعية الأدباء ، بالإضافة إلى أكثر من خمسة وعشرين متحفا للآثار والتاريخ والفنون ، ينهض على قمتها : دار الآثار المصرية ، كنز التراث المصرى القديم ، والمتحف الحربى ، ومتحف الشئون الصحية ،ومتحف الفن الحديث ومتحف مختار ومتحف السكك الحديدية ومتحف البريد ومتحف سعد زغلول (بيت الأمة) . . وحتى اليوم لم يقم متحف لتاريخ مدينة القاهرة ،وبالقاهرة ١١ دارا للكتب أكبرها دار الكتب القومية فى ميدان أحمد ماهر ــ بالإضافة إلى مكتبات الجامعات والجمعيات العلمية والمجمع المصرى ومكتبة الأزهر ومكتبة مركز البحث. والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية والمكتبة البريطانية .

ويعمل بالقاهرة حوالى ستمائة مؤسسة وشركة وفيها ما لا يقل عن عشرة الآف مصنع صغير . ومن الاحصائيات الطريفة أن القاهرة وحدها تأكل كل يوم عشرين مليون رغيف، علما بأن مصر هى أكثر شعوب العالم استهلاكا للخبز. وفى القاهرة أربعمائة تاجر خضروات يبيعون بالجملة ولا يخفى أن زراعة الخضر تزداد سنة بعد سنة وقد وصلت المساحة المزروعة بالخضروات عام ١٩٧١-٠٠٠ ر ٧١٠ فدان قدمت ٢ر٥ مليون طن بدلا عما كانت فى عام ١٩٦٥ — ٠٠٠ر٦٢٣ ألف فدان . وفى القاهرة مذبح كبير للحيوان أنشىء منذ خمسة وسبعين سنة وهو يمد سكان القاهرة وحدها بـ ٠٠٠ر٥٢٩ ألف رأس سنويا تمثل نصف استهلاك اللحوم على مستوى مصر كلها ، وبالمدينة مذابح ثلاثة صغيرة أخرى فى الزيتون وحلوان وطره ، وتزداد كمية اللحوم التى تلتهمها أفواه القاهرة سنة بعد أخرى ففى عام ١٩٦٩ وصلت الكمية إلى ٨٦٤٦٢ طنا ، أضف إليها ما تستورد من اللحوم المجمدة ، والمائة جمل التى تأكلها أفواه القاهرة كل يوم !! وفى القاهرة أكثر من عشرة آلاف عامل ينظفونها يوميا بالأساليب التقليدية وذلك بمعدل أربعمائة عامل لكل قسم من أقسام القاهرة .

وفى القاهرة فى عام ١٩٧٥ أكثر من عشرة آلاف عربة تاكسى بالإضافة إلى تاكسيات مدينة الجيزة فى حين يبلغ عدد السيارات الملاكى الخاصة ٠٠٠ر٧٥ فى القاهرة و ١٢٠٠٠ فى الجيزه ، وفى كل شهر تراخيص تصدرها إداره مرور الجيزة .

والمعروف أن القاهره تعانى أزمة شديدة فى المساكن ، كبقية مدن العالم الكبرى ، ولذلك ففى القاهرة ٠٠٠ر٣٨٠ ألف من السكان يعيشون فى المقابر مع الأموات فى مكان واحد ، فضلا عن هؤلاء الذين يلجأون إلى الأماكن الأثرية القديمة ومن أجل هؤلاء أقامت وزاره التعليم بعض المدارس الابتدائية والإعدادية وفى القاهرة وحدها اثنان وسبعون حانوتيا يحملون تصريحات عمل ويعملون بموجب لائحة للحانوتية صدرت منذ أكثر من خمسة وسبعين سنة تقريبا .

وكانت القاهرة خلال الألف سنة الأخيرة أو أكثر، المركز التعليمى الرئيسى فى أفريقيا ، فقد كانت مراكز التعليم وأكثرها دينية قليلة جدا فى البلدان الأفريقية . ويبدو أن الأزهر الذى أسسه جوهر الصقلى (٩٧٢ م) أول جامعة إسلامية، فقد سبق بناء الأزهر كثير من حلقات الدراسة ومراكز العلم فى الكوفة والبصرة وبغداد والفسطاط وغيرها من المدائن الإسلامية الكبرى. ومن المعروف أن جامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب والقيروان بتونس من المراكز الهامة للدراسة الدينية ولكن لم تكن الدراسة فيها فى صورة أكاديمية واضحة إلا فى الأزهر . فلقد كانت الدراسة فى المساجد الإسلامية قبل الأزهر تتخذ محورها من أحد المتخصصين فى فرع من فروع المعرفة الدينية ينصب نفسه مدرسا لذلك الفرع ويرتاد حلقته من رغب التعليم ، بيد أننا نجد فى الأزهر لأول مرة منهجا دراسيا عاما يشمل طائفة من العلوم بما فى ذلك العلوم غير الدينية . كما نجد أساتذة ثابتين يعملون لقاء أجر، ونظما للمنح الطلابية والامتحانات والاجازات العلمية ، ويضاف إلى عامل الدراسة الأكاديمية المنظمة بالأزهر أنه مازال باقيا يؤدى وظائفه حتى يومنا . وكان يفد إلى حلقات الأزهر الطلبة من جميع أنحاء العالم فيتتلمذون لأساتذته ثم يعودون إلى بلادهم لتعليم مواطنيهم .
وقد تم تجديد الأزهر فى مراحل ثلاث :الأولى بفضل الشيخ محمد عبده فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر،والثانية بفضل الشيخ مصطفى المراغى فى الثلاثينات من هذا القرن ، والمرحلة الثالثة(١) فى عام ١٩٦٤ حينما اتخذت خطوة جريئة وهى مشروع لتأسيس جامعة أزهرية جديدة فى بقعة مساحتها خمسمائة فدان فى مدينة نصر شرق العباسية ، وبالقرب منها أعطيت مائة وخمسون فدانا أخرى لاقامة جامعة إسلامية للبنات ترتبط بالأزهر .

---

(١) نص قانون تطوير الأزهر (١٠٣ لسنة ١٩٦١) على إنشاء عدد من الكليات العملية التى لم تكن موجودة من قبل .

وتتألف اليوم جامعة الأزهر من الكليات والمعاهد الآتية (١٩٧٥) : كلية أصول الدين — كلية الشريعة والقانون — كلية اللغة العربية — كلية التجارة — كلية البنات الإسلامية — كلية الهندسة — كلية الطب — كلية الزراعية — كلية التربية — كلية العلوم — كلية أصول الدين بأسيوط — كلية الشريعة والقانون بأسيوط — كلية اللغة العربية بأسيوط ومعهد الدراسات الإسلامية والعربية ، معهد اللغات والترجمة . وللجامعة الأزهر فروع أخرى بطنطا والمنصورة والاسكندرية ويجرى اليوم إنشاء مكتبة أزهرية كبرى بمدينة نصر وقاعة كبرى للمحاضرات ومسجد كبير ، وملعب رياضى ومدينة جامعية . . إلخ كما أن هناك مدينة للبعوث الإسلامية يشرف عليها ويديرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وموجز القول فقد بلغ عدد طلاب الأقسام الابتدائية والثانوية والجامعية بالأزهر أكثر من خمسين ألف طالب . بقى أن نذكر أن بالقاهرة — بالإضافة إلى جامعة الأزهر العتيدة وهى فى شرق القاهرة — فهناك ثلاثة جامعات أخرى ، جامعة القاهرة وهى فى غرب القاهرة وقد أنشئت عام ١٩٢٥ ، وجامعة عين شمس التى تعيد إلى ذاكرتنا جامعة أون القديمة (هليوبوليس) وقد أنشئت عام ١٩٥٢ وهى فى شمال القاهرة ، وأخيرا جامعة حلوان التكنولوجية ، وقد أنشئت عام ١٩٧٥ فى جنوب القاهرة . وبالإضافة إلى تلك الجامعات ، فإن لها فروع فى الخرطوم وبيروت ، كما أن لها معاهد كثيرة للدراسات العليا .

وفى القاهرة ما لا يقل عن ٤٥ مدرسة حضانة لصغار الأطفال ، وتسعمائة مدرسة ابتدائية و ١٢١ مدرسة إعدادية ومائة مدرسة ثانوية و ٨ مدارس المعلمين ، فى القاهرة ١٥٢٥ جمعية خيرية و ٣٢٠ جمعية تعاونية والجدير بالذكر أن القاهرة تنقسم من الناحية الإدارية إلى ٢٢ قسما .

إن القاهرة اليوم هى خليفة مدينتين عظيمتين ، هما هليوبوليس القديمة مدينة

العلم والنور ، والاسكندرية بؤرة الاشعاع العلمية فى عصر البطالمة والرومان . . حينما احتلت أفكار المصريين ،منذ القدم بافكار غيرهم من أهل المشرق والمغرب . . فلا غرو بعد كل ما ذكرنا . . أن تصبح مصر ، والقاهرة خاصة قاعدة الثقافة ومعقلها للعالم العربى وللعالم الأفريقى بل وللعالم الإسلامى قاطبة . . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا أن قيض الله للاسلام هذا البلد الأمين ذا التراث العقلى والإسلامى والفنى ، وهذا الموقع الجغرافى المتوسط المطل على بحرين هامين ، ما كان له ذلك الذيوع ، ولا كانت لثقافته العربية تلك المكانة .

وتتمتع القاهرة بمميزات كثيرة ، فهى من أقدم مدن العالم حضارة ، وأكبر المدن الإسلامية ، وأعظم مدن أفريقيا وهى أيضا ملتقى ثلاث قارات كبرى وملتقى الثقافتين العربية والأوربية . كما أنها أعظم المدن التى تقع على نهر النيل — وهو من أكبر أنهار العالم ، ولذلك نستطيع أن نقول متأكدين أن القاهرة تنفرد بحقائق كالأساطير كما وصفها واحد من أبنائها وهو الكاتب سلامه موسى ، فضلا عن أنها مدينة سياحية تجتذب إليها ملايين المثقفين .

والقاهرة مقر جامعة الدول العربية فهى محط أفكار العرب جميعا ، فيها يتجمع شملهم فى كل ما يخصهم فى الشئون التربوية والاقتصادية والسياسية والثقافية وهى أيضاً مقر أمانة الجماعة الأفريقية الأسيوية ، فهى إذن تهم ملايين الأفريقيين والأسيويين ، فلا يكاد يمر أسبوع ، حتى يقصد القاهرة مندوبو بعض الدول للاجتماع للنظر فى مشاكل العالم الكثيرة . إذن فالقاهرة مدينة عالمية ، فتها أو فى الاسكندرية عاصمة الجمهورية الثانية ، مكاتب اقليمية تمثل الهيئات الخاصة التابعة للأمم المتحدة ، مثل هيئة الزراعة والطعام ، وهيئة الصحة العالمية ، ومنظمة السياحة العالمية وصندوق النقد الدولى وبنك التعمير الدولى وغيرها . ومعظم هذه المكاتب يشرف ، فى حدود اختصاصه على شئون الشرق الأوسط جميعة من وجهة النظر العالمية . فالقاهرة اليوم واحدة من مدن قلائل تعد قبلة أنظار العالم .

الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

٢٧ مارس إلى ٥ أبريل سنة ١٩٦٩

وقررت حكومة جمهورية مصر أن تقيم ندوة دولية لتاريخ القاهرة فى مناسبة مرور ألف عام على إنشاء القاهرة ، فدعت طائفة من العلماء الأجلاء ، والمشتغلين بالحضارة الإسلامية والتراث الفنى . ولا شك أن القاهرة على مر السنين احتلت المكان اللائق بها بين مدائن العالم علما وثقافة وحضارة وفنا ، وأصبحت ذات منزلة مرموقة . إجتمع هؤلاء العلماء وتدارسوا وتناقشوا فى عدة مشكلات تاريخية وأثرية وأدبية وعمرانية وإقتصادية .. جميعا تتصل بالقاهرة الخالدة،وكان من ثمار هذه الندوة صدور عدة مجلدات ضخمة تضم البحوث التى أثيرت فى هذه الندوة(١) .

علماء القاهرة وأدباؤها

فى النصف الثانى من القرن العشرين

والمدينة ، أية مدينة فاضلة ، ليست مجرد عمائر ومنشئات المرافق الكثيرة ومساكن يعيش فيها أهلها . . إن لهؤلاء ، المساجد والمعاهد والمنتديات والمسارح والمقاهى ، ودور الطباعة التى تصدر الكتب والصحف والمجلات وما يحتاجون إليه لصقل عقولهم وتثقيف نفوسهم . إذن فمن هؤلاء الذين يغذون أجهزة الأدب

---

(١) وزارة الثقافة : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - أبريل ١٩٦٩) - ثلاثة أجزاء . ط دار الكتب ١٩٧٠

والفن والعلم والتعليم ،من مفكرين وأدباء وشعراء وفنانين ومؤرخين وتربويين و . . و . . هؤلاء الذين يتغلغلون بأفكارهم بين جميع الناس . . والقاهرة فى أى عصر عاشته منذ أن أنشئت الفسطاط كانت بؤرة إشعاع للثقافة الإسلامية فى جميع ألوانها . لقد مرت أسماء بعض مفكرينا وأدبائنا وعلمائنا الذين أثروا فى حضارتنا فى أكثر من تسعمائة عام . والآن نحاول أن نسجل بعض أسماء بقية الكوكبة اللامعة من مفكرى القاهرة وأدبائها وعلمائها . . .

نذكر من هؤلاء الأدباء والمفكرين :

اسماعيل مظهر (١٨٩١ - ١٩٦٢) ، وأمين الخولى (١٨٩٥ - ١٩٦٦) ، وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ —) ، وثروت أباظة (١٩٢٧ —) وحسين القبانى (١٩١٨ —) ، ورشاد رشدى (١٩١٩ -) وزكى نجيب محمود ، وسهير القلماوى (١٩١١ —) ، وشوقى ضيف (١٩١٠ —) وصلاح عبد الصبور ١٩٣١ -) وعائشة عبد الرحمن (١٩١٣ -)وعبد الحميد جودة السحار (١٩١٣ - ١٩٧٤) ، وعبد الرحمن الشرقاوى (١٩٢٠ -)، وعبد الرحمن صدقى (١٨٩٩ - ١٩٧٣) ، ومحمد على غريب ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعبد المنعم خفاجة ، ومحمد سعيد العريان ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمد عوض محمد (١٨٩٥ — ١٩٧٢) ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد مندور (١٩٠٠ - ١٩٦٥) ، ومحمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) ، ومحمود طاهر لاشين ، ومصطفى محمود ، ومصطفى السحرتى ، ونجيب محفوظ ، ونعمات أحمد فؤاد ، ووديع فلسطين ، ويحيى حقى ، ويوسف إدريس ، ويوسف جوهر ، ويوسف السباعى (١٩١٧ - ١٩٧٨) ، ويوسف الشارونى ، ومحمود عزمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد شفيق غربال ، وحافظ محمود ، ومحمد زكى عبد القادر ، وعبد الحميد يونس ، وعلى حمدى الجمال (ت ١٩٧٩) ، وعبد العزيز الدسوقى ، وحسين مؤنس ، وفتحية رضوان ، ورشدى صالح ، وحسين فوزى ، ولويس عوض ، وأنيس منصور ، وإبراهيم خورشيد . . . وغيرهم .

ومن شعرائها :

إبراهيم ناجى (١٨٩٨-١٩٥٣) ، وأحمد رامى (١٨٩٢ -) ، وأحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) ، وأحمد عبد المعطى حجازى (١٩٣٥ -) ، وحسن كامل الصيرفى (١٩٠٨ -) ، وحسن فتح الباب ، وخليل جرجس خليل (١٩١٤ -) ، وصالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٧) ، وعبد الرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) ، وعبد القادر القط (١٩١٦ -) وعزيز أباظه (١٨٩٩ - ١٩٧٣) ، وعلى الجندى (١٩٠٠ - ١٩٧٣) ، والعوضى الوكيل (١٩١٥ -) ، ومحمد الأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٧) ومحمد أبو الوفا ، ومحمود حسن اسماعيل (١٩١٠ - ١٩٧٧) . ومحمود غنيم (١٩٠٢ - ١٩٧٣) . وصلاح عبد الصبور ، وغيرهم من الشعراء المجيدين .
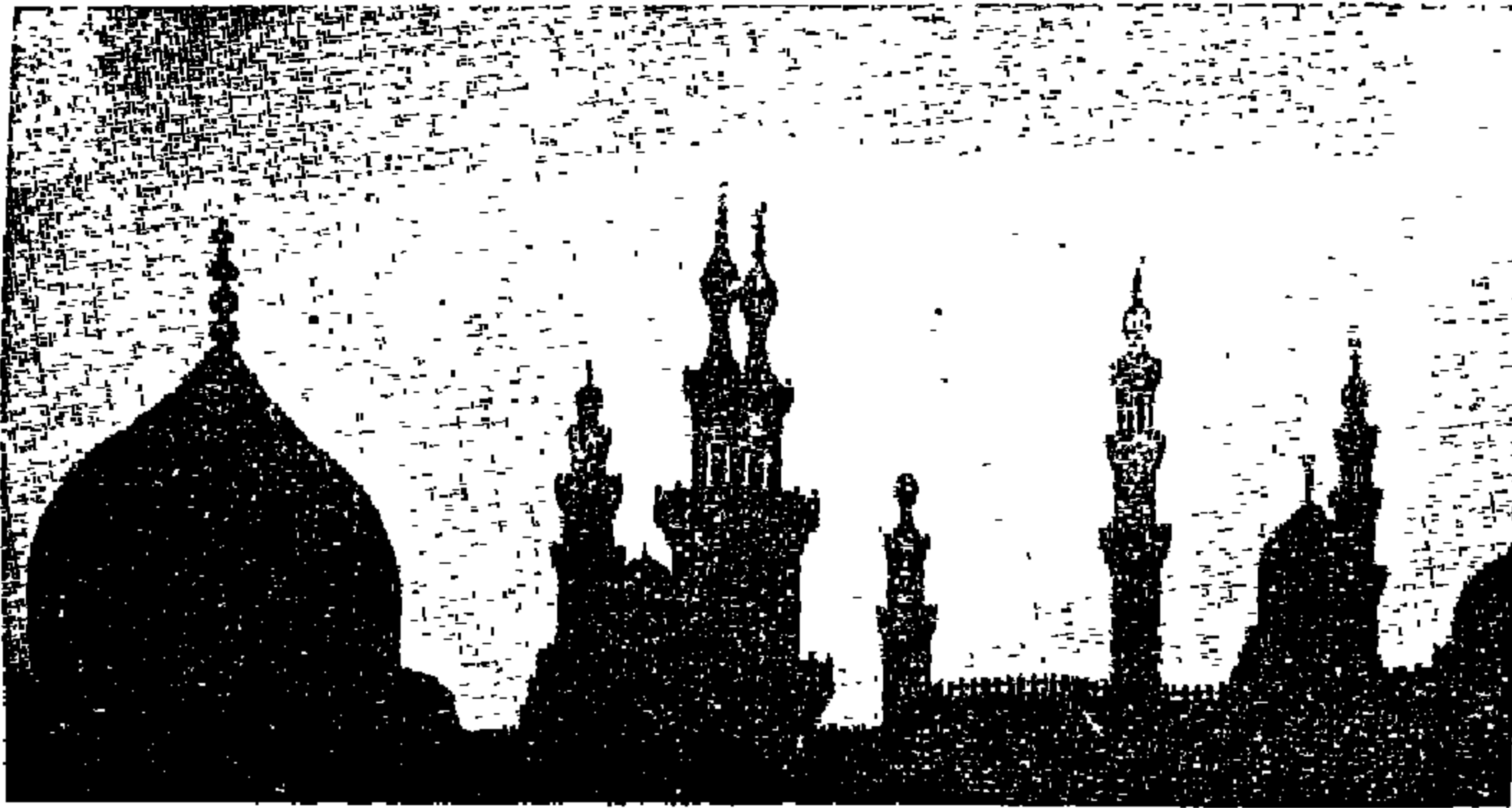
القاهرة الظافرة ومعركة التحرير

(١٠ رمضان ١٣٩٣ — ٦ أكتوبر ١٩٧٣)

واحتفلت ملايين القاهرة وأهل مصر باستقبال أبطال معركة تحرير سيناء وعلى رأسهم زعيم البلاد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات وقائد العبور الذى دون تاريخ المنطقة بحروف تشع نورا وكرامة ، لقد حيت القاهرة أبناء مجاهدى معارك حطين ، وعين جالوت ، وعكاء الإسلامية ، وتزيب ، وسيناء . وما تزال القاهرة تذكر شهداء تلك المعارك سنة بعد أخرى حينما يحتفل الأبناء بذكرى نصرهم ، ويترحمون على أرواحهم . . . فهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون . . .

القاهرة تحيى رسول السلام

أعلن الرئيس محمد أنور السادات فى تاسع نوفمبر ١٩٧٧ فى مجلس الشعب المصرى ، « سوف يندهش الإسرائيليون لدى سماعهم ما سوف أقوله الآن » إننى على استعداد لأن أذهب إليهم فى عقر دارهم . . أنا على استعداد لأن أذهب إلى الكنيست لأناقش السلام معهم . . . ولأوفر كل قطرة من دماء أولادى فى القوات المسلحة .

ثم وجه مناحم بيجن « رسالة إلى الشعب المصرى أكد فيها موافقته على ما أعلنه الرئيس السادات » من رغبة فى زيارة إسرائيل . . . وكان ذلك يوم الجمعة ١١ نوفمبر .

وفى يوم الخميس ١٧ نوفمبر ، أعلنت القاهرة والقدس أن رحلة الرئيس

« السادات » سوف تبدأ مساء السبت ١٩ نوفمبر .. بعد نهاية راحة السبت ..

وفى يوم السبت ١٩ نوفمبر ٧٧ ،فى الساعة الثامنة إلا دقيقتين ، ووسط أضواء المصابيح الكاشفة أخذت طائرة بوينج ٧٠٧ بيضاء مصرية تسير ببطء إلى أن توقفت تماما على أرض مطار « بن جوريون » ، فانطلقت أبواق موسيقى الجيش الإسرائيلى فى تحية ترحيب ، وبينما أخذ آلاف الاسرائيليين يلوحون بالأعلام المصرية .. خرج من الطائرة الرئيس أنور السادات ... ولدى نزول سيادته على سلم الطائرة — حياه بحرارة الرئيس « إفرايم كاتزير » و« مناحم بيجين» رئيس الوزراء ... وتبادل الجميع كلمات الترحيب والشكر .

بعد هذا المشهد ركب « السادات » سيارة أقلته إلى مدينة القدس .. ثم نزل فى فندق « الملك داود » .. كان العالم جميعه يرى هذا المشهد النادر !

وفى اليوم التالى ٢٠ نوفمبر ألقى الزعيم الشجاع سيد مبادرة السلام كلمته التاريخية المشهورة فى الكنيسيت .. ! سبحان الله .. إنها حقا شجاعة المواجهة.. لقد صفق العالم .. كله .. تقديرا وتحية .. فقد نجح الزعيم فى إزالة الحاجز الذى يفصل بين بلدين متحاربين فأصبحا صديقين .

وفى اليوم نفسه خرج شعب مصر فى القاهرة يؤيد مبادرة السادات .. خرج الشعب فى صورة لم يسبق لها مثيل .. خرج يحيى الرئيس ويؤيد مبادرة السلام ... ومضت الأيام فى التفاوض حتى وقع الطرفان ، والولايات المتحدة الأمريكية ، إتفاقيتى كامب دافيد للسلام .

ثم أخذت اسرائيل تنسحب رويدا رويدا وفى مراحل ستة من سيناء وعلا على ترابها علم مصر الخفاق .. ومن ثم عادت إلى أحضان أمها مصر ...

الجمعيه المصرية لمحبى الآثار

ولما كانت آثار القاهرة فريدة فى عصرها الإسلامى ، فضلا عن أساليبها المعمارية الرائعة التى تمثل العصر الذى شيدت فيه خير تمثيل — فإنه ينظر إليها دواما بتقدير وإجلال باعتبارها تراثا مشرفا للحضارة الإنسانية ، ينبغى الحفاظ عليها وصيانتها على مر الزمن ..

إذن ، كان من الطبيعى أن تؤسس الجمعية المصرية لمحبى الآثار ، وتنهض تحت رياسة سيدة مصر الأولى — السيدة جيهان السادات ، ومعها جماعة من علماء الآثار والمؤرخين والمثقفين . . يعملون جميعا للدفاع عن تراث مصر المعمارى بشتى الوسائل ، بالإضافة إلى العمل على تعميق مفهوم الآثار المصرية النادرة عند أبناء الأجيال الحاضرة والصاعدة . . . كان تأسيس هذه الجمعية يوم ٢ شعبان ١٣٩٩ الموافق ٢٧ يونيو ١٩٧٩ فى بيت السيد الرئيس بالجيزة . . .

وتهدف الجمعية إلى حفظ وصيانة الآثار ضد عوامل التلف ومعالجتها أولا بأول وتربية الوعى للإهتمام بالآثار والتعريف بها وتشجيع البحث الأثرى العلمى ودراسة العمائر المسجلة ، أو التى تقترح الجمعية تسجيلها ..

ومن مؤسسى جمعية محبى الآثار ، السادة : د . مصطفى كمال حلمى ، و د . بدراوى محمد فهمى ، و د . ميريت غالى ، ود . عبد الرحمن زكى ، والسيدة ليلى على إبراهيم ، و د . جورج سكانلون ، و د . جيفرى كنج ، و د . شحاته آدم ، والأستاذ محمد صفوت الشريف ...

الفهرست

الموضوع صفحة

* إنتهى ولله الحمد *

رقم الإيداع ٥٢٨٣ / ٧٩

دار الأمل للطباعة ونشر

١٩ شارع أرض الحرمين ـ الظاهر ت : ٩٣٣٥٤٢